

أفرا

أمانة السيد

شاهدات في الهند

مسابقات في الهند

أمانة السعيد

مناهل في الهند

اقرا

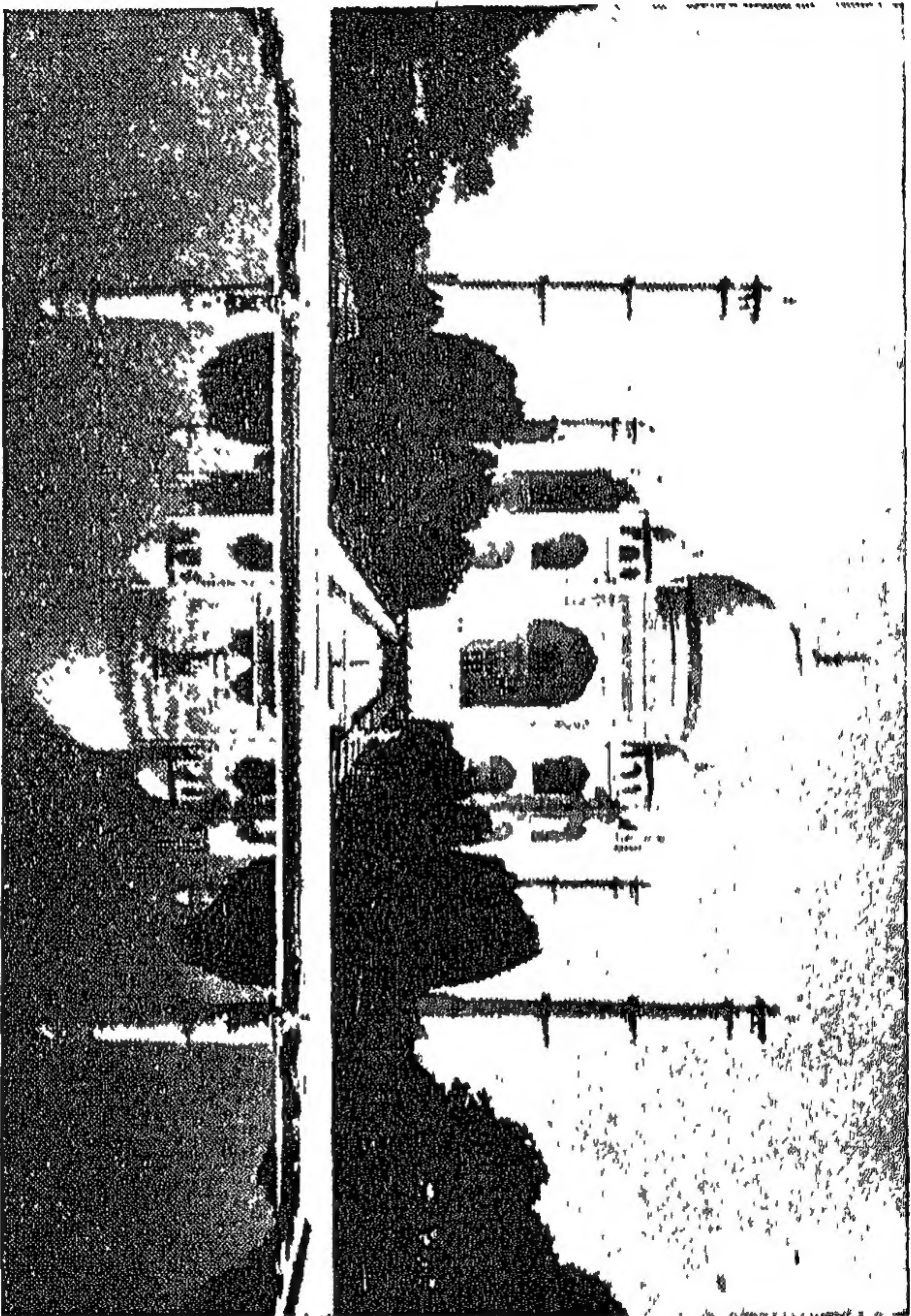
٤٥

دار المعارف للطباعة والنشر بمببر

اقراء ٤٥ — أغسطس ١٩٤٦



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بـبصر



مقبرة تاج محل (صفحة ١٠٤)

كان الهدوء شاملاً ، والليل بارداً ، وهواء الشتاء القارس ينبعث
 الوجوه ؛ والقاهرة بنت المرح والنور تنام في ظلام دامس لا يخفف
 من رهبته غير التمايع بعض النجوم الساهرة ، وهي تطل بين آونة
 وأخرى ، فتلقى علينا من السماء الملبدة بالغيوم بسمة متألقة. وتسالت
 بنا سيارة المطار في تهادٍ وبطء ، كأنها تشفق أن يزعج صوت
 عجالاتها الضخمة هذا السحر المصري العجيب !

جالسنا جميعاً صامتين ، وقد تدثر كل منا بمختلف الأغشية
 والمعاطف استعداداً لدرء البرد في طبقات الجو العليا ، التي سنشقها
 بالطائرة في رحلة طويلة إلى الهند .

ولم يكن بيننا تعارف قديم ، لتبادل التحيات والحديث ،
 فأطبقت الشفاه ، وأطرقت الرؤوس ، وغرقت العيون في لجة عميقة
 من التفكير ؛ فربط الماضي بيننا جميعاً وإن اختلفت تعبيرات
 الوجوه باختلاف الماضي الذي نجول فيه .

وثقل هذا الصمت على ضابط انجليزى شاب، فانبرى للحد
 عسى أن يحطمه ، ولم يكن الحديث مرغوباً فى هذه اللحظة
 يجد بيننا مشجعاً أو مجيباً ، فانخفض صوته تدريجاً ، و
 الكلمات على شفثيه ، وأطبق السكون مرة أخرى ، ولم نعد
 غير حفيف عجلات السيارة ، وهى تتقدم بنا حثيثاً نحو المطا
 وتفرقنا فى مقصف المطار ، وانتهيت جانباً أرتشف فيه
 من القهوة ، وأتأمل منه جماعة المسافرين . لم أجد بينهم
 امرأة واحدة تصحب طفلة جميلة لا تزيد سنها على خمس سنو
 ورأيت فى وجه هذه المرأة مزيجاً من التفاؤل والوجوم ،
 تارة باسمه تنظر إلى ساعتها ، كأنها تستحث الوقت على الإي
 وتارة أخرى جامدة العينين ، بعيدة النظرات ، تحاول أن ت
 حجب مستقبل لا تطمئن إليه . وقد علمت فيما بعد أنها فر
 فرقت الحرب بينها وبين زوجها فانتظم فى سلك الجندية ، و
 عبر البحار، وظلت هى اقية فى أرض وطنها تقاسى آلام الاح
 والجوع والحرمان . ولما وضعت الحرب أوزارها عُين زوج
 القنصلية الفرنسية بالصين، وأرسل يستدعيها فلبت دعوته وج
 إلى مصر لتطير منها إلى الهند وتعبر جبال الهمالايا فتستقر فى الد

وكانت كما توقعت نهبا لشعورين متعارضين : القلق من حياة
تقبل عليها ولا تعرف من أمرها شيئا ، والسرور لقرب اللقاء بعد
أن فارقها شريك حياتها كل هذه السنين .

وعلى خطوات جلس ضابط بريطاني شاب ، لم أرفيه أمر
المرح المهود في إخوانه ممن راضتهم الحرب على تقبل الترحال
باسمين ؛ بل كانت هناك ابتسامة ، ولكنها ارتسمت على ركن
واحد من فمه ، وتقلص الركن الآخر ، ولاحت عليه تباشير مجرة
يزيدها تألق عينيه البراققتين سخرية وقسوة ، فالعالم أجمع لا قيمة
له في نظر مثل هذا الرجل ، وصور الحياة مهما تعددت ألوانها
لا تستطيع أن تحرك روحه الجامدة ، وتثير في نفسه ثقة أو تفاؤلا .
وسمعه يقول لأحد زملائه :

— وأي فائدة من البقاء في الوطن ؟ لقد سُرِّحت عند
ما وضعت الحرب أوزارها ، فوجدت العالم في عهد السلم أشد
تطاحنا منه في ميادين الوغى . واشتيمت رائحة جولة ثانية لا بد
أن يشار عجاجها قريبا بين الظافرين ، فأشفقت نفسي من كيفاح
اجتماعي كتب له أن ينقطع في بدايته ، لذلك تطوعت ثانية في
جيش الهند ، وسأبقى به حتى يدوم نفي القتال من جديد !

هكذا أقدمنا جميعاً على سفر واحد وإن اختلفت إحساساتنا ،
وتنوعت دوافعنا ، وتباينت أهدافنا : فهذه الفرنسية في طريقها
إلى الصين تقصد زوجها الذي بعدت عنه سنوات طوالاً ، وهذا
الضابط يرحل إلى الهند مدفوعاً بالتشاؤم وفقدان الثقة بالحكمة
البشرية ؛ وللباقين مآربهم الأخرى ، فليس من المعقول أن ينتقل
إنسان من قارة إلى قارة وقد خلف وراءه الوطن والأهل والأحباب
دون حافز قوى يضطره إلى ذلك .

ولكن أكان حافزى قوياً أيضاً ؟ ! بالأمس بدا الأمر ضرورياً
حتى أنني قبلت السفر بعد أربع وعشرين ساعة ، وارتضيت
الرحيل إلى أقصى نواحي المعمورة ، ولكن رأيت تغير هذا الصباح
وأنا أجلس في مقصف المطار أنتظر ساعة الرحيل وبدا الأمر تافهاً
لا يستحق المخاطرة ، فأنحيت على نفسي باللأئمة أن قبلت السفر
وحيدة إلى بلد بعيد تفصلنا عنه آلاف الأميال ، ولا أعرف عن
حياته وشئون شعبه شيئاً . ترى ماذا يكون لو سقطت الطائرة
وتحطمت فخرمت وأولادى رؤية بعضنا بعضاً ؟ سيقول الكل :
إنها طائشة جريئة تترك أطفالها من أجل مؤتمر نسائي هندي ،
فاستحقت عقاب الجرأة والطيش !

وارتفعت يدي دون أن أشعر إلى المصحف الصغير الذي كنت
أعلقه حول عنقي ، فما كادت أصابعي تلمس غطاءه الفضي حتى
عادتنى الطمأنينة وشماني هدوء عظيم ، وحسنت نظرتي إلى
ما أقدمت عليه ، فعدت متفائلة كما كنت في اليوم السابق ،
وتضاءلت الصعوبات أمامي ، فعدت الرحلة سهلة يسيرة : ألا
يسافر الناس كل يوم بالطائرة إلى أقطار أبعد من الهند فيصلوا
سالمين ، ويعودوا إلى ذويهم آمنين ؟ !

ولماذا أخشى الرحيل وحدي ؟ حقيقة أننى لا أعرف الهند ولم
أسافر إليها من قبل ، ولكنى اعتدت في الأعوام الأخيرة أن
أرحل وحيدة إلى بلاد لا أعرفها وليس لي فيها أصدقاء ينتظرون
فما شعرت يوماً بالوحدة ، وما استهدفت أبداً للخطر ، فلتكن تلك
الرحلات السابقة مقياساً لهذه ، ولما ينتظرنى في الهند من
راحة وسعادة .

ولم يكن المنطق سليماً في هذا التفكير ، وإنما كنت أطمئن
نفسى ؛ فقد اقتصررت رحلاتي السابقة على بلاد عربية ، و بلاد
العرب ترتبط جميعاً بروابط قوية من الصداقة والتفاهم واللغة
والتفكير ؛ وإذا انتقل مصرى إلى سوريا مثلاً فهو في وطنه ،

و بين أهله وعشيرته وإن اختلفت المناظر، وتغيرت الأجواء ؛ لأن
العربي عربي مهما تنوعت البيئة التي يعيش فيها ، والعروبة صلة
جامعة تأكل المسافات ، وتوحد الأوطان .

وعادت بي الذاكرة إلى أربع سنوات مضت عند ما جلست
في منزلي ذات مساء أنتظر قدوم جماعة من الضباط الهنود كنت
قد دعوتهم تلبية لرغبتهم الصداقة في التعرف ببعض الأسر
المصرية وإنشاء أواصر الصداقة معها .

ولم أكن أعرف إذ ذاك عن الهند قليلاً ولا كثيراً ، اللهم
إلا ما ترسمه الخيلة من صور غريبة يزينها زخرف المبالغة : فهي
بلاد كبيرة بعيدة تضم بين جنباتها الواسعة شعباً يركب الأفيال ،
ويتمرغ في الذهب ، ويسكن قصوراً شاهقة رصعت جدرانها
بالجواهر والأحجار الكريمة . ويتزعم هذا الشعب المترف الغنى
فيلسوف زاهد ، لا يرتدى من الثياب إلا قليلها ، ويقتات بلبن
ماعزة لا تفارقه . ولقد استطاع هذا الناسك المتبتل أن يملك
زمام مواطنيه ، ويوجههم نحو التحرر بطريقة سامية عجيبة استعصى
فهمها علينا معشر العرب .

ولم يكن لي عذر مقبول في هذا الخيال المبالغ فيه ، فقد تعلمت

أثناء الدراسة شيئاً من الجغرافيا ، وحفظت الكثير عن الهند وأشجارها وأنهارها وحياة سكانها . وكان جديراً بي أن أعرف شيئاً عن تلك البلاد ، فأخذت في ذلك المساء أبذل مجهوداً جباراً في تقليب طيات الذاكرة واستخراج بعض معلوماتها ، فكان جهداً ضائعاً انتهى بالفشل .

وجاء الأضياف فارتحنا إليهم وغدوا على مر الأيام أصدقاء حميمين ، لا تحلو لنا نزهة أو جلسة في غير وجودهم ، وأعجبنا كثيراً بخلقهم الحميد ، ونبلهم العظيم ، وكرامتهم الشائخة ، فأحببنا بلادهم في أشخاصهم ، وتمنينا زيارتها من أجلهم . وبفضلهم زالت صور الماضي وخزعبلاته ، وتعلمنا حقائق كثيرة مثل « باكستان » وأهدافها ، والخلافات الطائفية التي تنطوى عليها تلك الأهداف .

وبدت لنا الخلافات الطائفية تافهة القيمة ، وإلا فكيف رضوا أن يجتمعوا مسلمين ونصارى وهندوس وپارسی وسمیخ حول مائدتنا كل ليلة تقريباً ، فنتناول الطعام معاً ، ونقضي ساعات طويلة في سمر دون أن تبدولنا من أحدهم بادرة تدل على نفور أو خلاف ؟

وكانت هذه الظاهرة أبداً موضع اختلاف بيننا وبينهم، فنحن نراهم أخوة يعيشون معاً ، ويتنزهون معاً ، وياً كلون معاً، فإن استطاعوا أن يفعلوا ذلك في مصر فلم لا يفعلونه في الهند ، إلا إذا كانت هناك أصبع محرقة ؟! وكانوا يبتسمون لهذا الرأي ويقولون : إنهم مثل الطبقة المتعلمة ، ولا يصح أن تقاس الهند بأفراد هذه الطبقة لغدرتهم ، فضلاً عن أن الخلاف متأصل متشعب من الصعب أن يتصوره الغريب من بعد . ولم نصل أبداً إلى اتفاق في هذا الموضوع .

يبدو أن صور الماضي تعددت أمامي ، وأنا جالسة في مقصف المطار ، فشغلت بها عن المذيع الذي يردد اسمي ، ويدعوني أن ألحق بالطائرة . وكدت أتخلف عن السفر لولا ذكاء أحد المسافرين ، فقد سمع المذيع يكرر اسماً شرقياً ، فتلفت في المكان فلم يجد وجهاً شرقياً غير وجهي ، فتقدم مني مسرعاً ، ونبهني ، وبفضله استطعت أن ألحق بالطائرة قبل أن تقلع بدقائق معدودات !

وحلقت بنا سفينة الهواء ، وارتفعت فوق الغمام ، وراحت تشق طريقها في الظلام ، والكل على سابق حاله : صامت

مكتئب ، يستعرض الماضي ، ويتكهن بالمستقبل ، حتى تنفس
 الفجر ، وتدافعت جيوش النهار زاحفة وراء طبقات الظلام
 الهاربة ، واصطبغ الأفق بدماء الشمس الأرجوانية ، فدبت
 الحركة بيننا ، وارتفعت الرؤوس المطرقة ، وأشرقت الوجوه
 الواجحة ، وغاب الماضي بذكرياته ، ولم يعد أمامنا غير مستقبل
 كله أمل وابتسام . وكان انقلاباً عجيبيّاً وإن كان طبيعياً ، فالليل
 مبعث التأمل والتفكير ، وفي ظلامه الدامس تكتئب النفوس ،
 ويشيع التشاؤم ، فما أحلى النور ، وما أجمل النهار !

دبت الحياة في الطائفة ، ورفرفت أجنحة الإلهة في جوها ،
 فلم نعد غرباء لا نتبادل تحية أو حديثاً ، بل أحسبنا أننا أسرة
 واحدة تضمها جنبات سفينة الهواء ، فتربطها بمصير واحد .
 والتفت كل إلى صاحبه يعنى بأمره ، ويسامره ، ويقص عليه
 نوادر حياته ومخاطراتها . وجلس إلى جوارى ضابط كهل ، قضى
 في الهند زهرة شبابه ، فلما علم أنني ذاهبة إلى تلك البلاد أنبنى
 في رفيق ، وحذرني أموراً كثيرة ، وكان قاسياً في نقده للهنود ،
 فعاودني التشاؤم ، وانقبض صدرى بعد انشراح ، ولكنني عدت

فتذكرت أنه سكسونى ، وللسكسون فى الشرق رأى لا نتفق معهم فيه !

وانقضى يومان فى رحلة ممتعة ، هبطنا خلالها فى مختلف بلدان الشرق ، فنزلنا أولاً بفلسطين ذات الجبال العربية العتيقة ، وهبطنا بعدها العراق أبا دجلة والفرات ومهد الثقافات الإسلامية القديمة . وشاهدت فى البصرة منظرأ فريداً : آلاف الأفدنة المتصلة الممتدة ، زرعت جميعها نخيلاً ، فبدت مثل غابة شاسعة تنوء بأعباء ثقال من تمرعلى طبقت شهرته ولذته الآفاق . وحلقنا فوق إمارة البحرين ودرنا بها مرات قبل الهبوط فرأيت جزراً ثلاثاً هى كل أرض ذلك الأقليم . تُرى أى مستقبل ينتظر هذه الدويلات الصغيرة ، وأى أمل لنا فى التقدم والارتقاء ، و بلادنا مقسمة على هذا الحال إلى فتات ينتثر هنا وهناك ؟ ! لقد علمتنا الحروب المتتابة أن الشعوب الصغيرة لا يمكن أن تقف أمام طغيان المدينيات الحديثة ، وأن القوة فى العدة والتعداد . وخلق بنا أن نتمعظ بما تعلمناه ، فنجتمع شمل هذا الفتات المنثور ، حتى نصبح جهة قوية ثابتة ، لا شعوباً هزيلة تعداد السكان فى بعضها ربع مليون !!!

كانت الرحلة ممتعة دون شك ، ولكنها طويلة شاقة ، فخل
 بى التعب والإجهاد ، ورغبت عن تتبع المناظر الرائعة التى نمر
 عليها ، ولم أعد أنشد غير الراحة والسكون ؛ فلما نزلنا بإيران
 وبأقصى شبه جزيرة العرب ، تمنيت من صميم قأبى أن أنسى فى
 ركن من الأركان ، فتقاع الطائرة من غيرى ، لأصيب قسطاً من
 الراحة المنشودة ؛ ولكن الرقابة الحازمة حالت دون تحقيق
 أمنيتى !

وآذنت الرحلة أخيراً بالانتهاء ، وتهادت الطائرة بعد سفر دام
 يومين ، ثم هبطنا عند منتصف الليل على مطار « كراتشى » ،
 وهى أول بلاد الهند فى طريقنا . واستقبلتنا وجوه هندية سمرء ،
 تضىء بالذكاء والكبرياء ، فانتحى الضابط السكسونى بى
 جانباً ، وقال :

— لا تنتظرى مساعدة من هؤلاء ، فأنت مسامة ، وهم
 هندوس ، والأفضل أن تعدى نفسك المضايقات !
 وزعجت لقوله بعض الزعج ، ثم فكرت قليلاً ، فوجدت أنه
 لم يكن هناك فى الواقع ما يدعو إلى الانزعاج ، فأى مساعدة
 أحتاج إليها من هؤلاء ، وقد أعددت عدتى لكل شىء ، فجواز

السفر كامل قانوني ، وحقيقتي خالية من الممنوعات ، ووجهتي معروفة ، ومكاني في الفندق محجوز ؟ !

ومع ذلك ثار غضبي ، وتحفزت لأبديء بالعدوان ، وشمريت عن مساعد المشاكسة ، لأقابل به المضايقات !

وتقدم مني هندوسي جامد الوجه ، صلب التقاطيع ، لا يظن من يراه أن الابتسام يعرف طريقاً إلى شفتيه ، فقلت في نفسي : هنا ستكون معركتي الأولى ! وتأهبت للصراع ، وقدمت إليه جواز السفر ، وقلت متحدية :

— مسالة مصرية ، وجهتها الهند ، لحضور مؤتمر حيدر أباد ! وتأمل الهندوسي وجهي قليلا ، وانشى إلى الجواز يقرأه بتدقيق ، فلما تحقق من صحته ، تلا ذلك أمر عجيب لم أكن أتوقعه ، فقد أشرقت على فيه ابتسامة جميلة ، غيرت معالم وجهه الجامد ، وامتألت عيناه بآيات الرضا والعطف ، وتدفقت منه على كلمات التحية والترحيب ، فكانت مفاجأة شديدة شعرت معها بالأرض تميد تحت قدمي !

ووجدتني أجلس في مقعد مريح ومن حولي شباب الهندوس والمسلمين يتسارعون إلى خدمتي ، وجاءت القهوة ، وتلاها

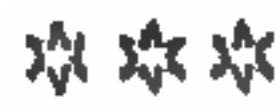
الشأى ، ثم بدأت معركة بين هؤلاء الشبان على من يدفع عنى
ثمن المشروبات .

وشاء كرم موظفى المطار أن يسهلوا على زيارتى الأولى لبلاد
الهند ، فاتصلوا تليفونياً بالدوائر النسائية الكبيرة ، وأنباوا سيدات
المؤتمر بقدمى ، وأعطوهن اسم الفندق وعنوانه ، مما ساعدنى كثيراً
على القيام بمهمتى دون مضیعة للوقت .



ومن العدل أن أقول : إن الشعور الطيب الذى غمرنى به
موظفو المطار ، ما هو فى الواقع إلا ظاهرة لما جبل عليه الهنود
جميعاً من عطف وكرم على إخوانهم الشرقيين ، وبخاصة أبناء
العروبة . والعجيب أنهم يعرفون عنا أكثر مما نعرف عنهم ،
ويتتبعون أحداثنا السياسية والاجتماعية باهتمام وشوق عظيمين ،
ويحملون لنا من التقدير والاحترام شيئاً كثيراً . والمصرى هناك
مكانة ممتازة ، لأنه دعامة الشرق كما يقولون ، ولذلك فهو يقابل
بالتعجّل والتكریم أينما حلّ أو ذهب ، مما يبعد عنه الوحشة ،
ويعملؤه بإيمان عجيب بأنه يعيش بين أهله وعشيرته ، على الرغم من
اختلاف اللغة ، وتباين العادات والتقاليد .

ولا يقتصر الكرم الهندي على طائفة دون أخرى ، فقد
نزات ضيفة على الهندوس كما نزات على المسلمين ، فلقيت من كلا
الفريقين تقديراً واهتماماً واحتراماً .



جلست في ركن من أركان مطار كراتشي تعبئة مجهدة ، بعد
رحلة طويلة شاقة ، ومفاجآت عنيفة لم أكن أتوقعها ، ودار
رأسي تحت وطأة الصداع ، فأسندته إلى راحتي ، ولم تمض
لحظات معدودات حتى تشاقلت جفوني ، ونعست فلم أعد أحس
بما يدور حولي !

عند ما فتحت عيني مرة ثانية ، كان السكون مطبقاً ، والظلام
شاملاً ، وموظفو المطار قد تركوه وانصرفوا إلى بيوتهم ؛ ولم أر
على مرمى النظر مخلوقاً بشرياً غيري ؛ وهكذا استجيبت دعوتي
أخيراً ، فنُسيت في مكان لم أكن أحب أو أرغب مطلقاً في
البقاء فيه !

ويقع مطار كراتشي في صحراء السند القاحلة على بعد عشرة
أميال من المدينة ، وسبيل الاتصال بين الاثنين سيارات خاصة
كبيرة كانت قد انصرفت في ذلك الوقت بالمسافرين ،

ولا أظن أن قلبي ارتجف في يوم من الأيام مثلاً ارتجف في تلك اللحظة التي كنت فيها وحيدة داخل مطار مظلم مهجور ، وسط صحراء قاحلة ، على بعد أميال من أول مدينة في بلاد لا أعرفها !

وبحثت عن حقيبتى ، فلم أجد لها أثراً ، فتضاعف خوفاً وياساً ، وقت أتفقد أرجاء المسكان عانى أجد من ينقذنى من ورطتى ، واهتديت أخيراً إلى نور بعيد ، قصدته مسرعة ، فوجدت ضابط الحراسة الإنجليزى ، وقصصت عليه ما حدث ، فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

— من دواعى سرورى أن أقدم خدماتى دائماً للسيدات ، فهلمى إلى سيارتى ، وسأنقلك بها إلى المدينة .

ولم أطمئن كثيراً لهذا القول ، فاخترق الصحراء بعد منتصف الليل مع ضابط يسره دائماً أن يقدم خدماته للسيدات ، أمر لا يبعث على الاطمئنان ! ومع ذلك قبلت دعوته ، حتى أتمكن من الوصول إلى العمران ، والبحث عن حقيبتى التي أودعت فيها جميع ملابسى ونقودى .

وجلسنا فى السيارة صامتين ، وراحت عجلاؤها تقطع بنا

صحراء جرداء ، مليئة بشيء ظننته في الظلام مستنقعات ،
 لابيضاض لونه ، وقسوة الروائح الكريهة التي تفوح منه .
 واضطربت أمعائى ، وخشيت أن تكون بلاد الهند كلها على
 هذا الحال ، فيتمذر على البقاء ، وحضور مؤتمر حيدر أباد السند
 الذى احتملت المشقة من أجله .

وأعترف أننى لم أكشف الآن عن حقيقة هذه المنطقة ،
 ولا سبب الروائح الكريهة التى تنبعث منها ؛ فعند خاتمة رحلتى
 عدت إلى المطار فى الظلام أيضاً ، فلم أتبين فى الذهاب أو الإياب
 طبيعة ذلك الجزء من صحراء السند .

وانقضت نصف ساعة تقريباً ، لم نتبادل خلالها كلمة واحدة ،
 ثم رأيت أمامى أنوار مدينة كراتشى المتألقة ، فبعث النور
 اطمئناناً فى قلبى ، وعادنى المرح ، وزايلنى الخوف والقلق .
 وبعد دقائق كنا أمام الفندق ، حيث وقف مندوب شركة
 الطيران الذى يرافقنا ذاهلاً بجوار حقيبتى ، يسائل نفسه : أين
 اختفت المصرية التى كانت مع جماعة المسافرين فى المطار !

عند ما انبلج نور الصباح ، وقفت في شرفة الفندق أتأمل
مدينة كراتشي وهي تنتشر حولي أميالا وأميالا ، فأخذت لجمالها
الحزين ، ونظافتها التامة ، وأناقة مبانيها الممتدة حتى حافة
الصحراء التي تحتضن المدينة من ثلاث جهات .

ولا أظن أنني رأيت مكاناً يرفرف عليه روح حزين مثل
هذه البلدة ، بل مثل الهند كلها ، فالحزن طابع الهند الأول ،
تراه مرتسماً على كل وجه وكل بنيان وكل طريق ؛
وهي ظاهرة عجيبة تسترعى أنظار الغريب ، ولا سيما إذا كان
مثلي ينتمي إلى شعب مرح يبسم دائماً حتى للآلام والنكبات ؛
قد يكون حزن الهند الخيم وليلد قرون متعاقبة من الآلام ،
وقد يكون طبيعة في الخلق الهندي ؛ ولكنه موجود على كل
حال ، وجذوره متأصلة في المجتمع ، وفروعه مختلطة بمواطن
الجمال ، حتى ليصعب الفصل أو التمييز بينهما .

وكراتشى مدينة حديثة لم يمس على إنشائها غير بضع عشرات من السنين ، وهى لذلك تعتبر أنظف مدن الهند ، وأكثرها نظاماً : فطرقاتها طويلة معبدة ، تقوم على جانبيها مبان صغيرة قليلة الارتفاع ، لا تزيد على طبقة أو طبقتين . ويقع حى المساكن فى ناحية من المدينة ، وقد شيدت فيه منازل بيضاء أنيقة ، تحيط بها حدائق واسعة ، ولكنها منازل منخفضة ، طابعها البساطة فى البناء والتأثيث ، لأن الحكومة تملك الكثير منها ، وتخصصه لرجال الجيش والموظفين .

ويتوج هذا الحى قصر منيف لأسرة هارون الشهيرة ، ولقد بنى هذا القصر على الطراز الهندى ، فهو عظيم الاتساع ، كثير الغرف ، ذو أجنحة مختلفة ، يعيش فيها الأبناء بعد الزواج كما هى العادة المتبعة هناك . وتحيط به من جميع الجهات شرفات كبيرة أقيمت على أعمدة بيضاء شاهقة . وأرض القصر وجدرانه وسقفه من المرمر الرائع الذى يبعث الرطوبة خلال شهور الصيف القائظة . والأرض المرممية تغطيها أثمن السجاجيد المعجمية ، والأرائك والمقاعد المنخفضة مكسوة بالدمقس المطرز بالفضة والذهب ، والموائد مليئة بالتحف النادرة . وبالقصر قاعتان

للطعام كاملتا العدة والاستعداد : إحداهما للولائم وهي تسع مائة شخص ، والثانية للاستعمال اليومي وتسع ثلاثين .

والناحية الأخرى من المدينة تحوى حياً تجارياً عظيماً يقصده الغرباء عقب نزولهم بأرض الهند ، للتفرج على ما يحويه من نفائس . وعلى جوانب طرقات الحى تقوم الحوانيت الشرقية ، المليئة بالجواهر والحرير المطرز باللؤلؤ والفضة والذهب ، حتى ليبلغ ثمن قطعة النسيج منها ثروة كاملة فى بعض الأحيان . ولقد صنعت هذا الحرير أيد هندية ، لتتخذ منه ملابس السيدات المترفات ، وهى الملابس المعروفة باسم « الصارى » . والصارى عبارة عن قطعة من الحرير المطرز ، يبلغ طولها ستة أمتار ، وتلف حول الجسم بطريقة خاصة ، ومع ذلك فهى أسيرة « الموضة » ، تتغير أشكالها بتغير مزاج السيدات ، مما يستلزم إخراج تحف جديدة منها كل يوم .

والعجيب أن المنسوجات الغالية المطرزة بالفضة والذهب ، موفرة فى الهند يستطيع الإنسان أن يجدها فى كل مكان ، على حين يقاسى الشعب أزمة خطيرة فى كساء الطبقات الوسطى والفقيرة . والأنسجة التى تستعملها هاتان الطبقتان تكاد تفقد

في الأسواق ، بل لا توجد فعلا في أسواق الريف ، مما أدى إلى انتحار بعض النساء ، لمجزهن عن شراء ما يستر أجسادهن ، وتقارير الشرطة تحوى كثيراً من هذه الحوادث المؤسفة .

وحوانيت كراتشى متنوعة البضائع ، بعضها يبيع الفضة فقط ، ويحوى شيئاً كثيراً من الأواني ، وأدوات الزينة الفضية التى ينقصها بوجه عام الدقة فى الصناعة ، وإن بلغ قليلها حد الكمال . أما العاج فموفور هناك ، لكثرة الفيلة فى الغابات ؛ وصناعته مربحة ، لأن الأجانب يقبلون على شراء التماثيل العاجية ليقدموها هدايا عند العودة إلى أوطانهم .

وتتمتاز بضائع كراتشى بأثمانها المعتدلة ، لبعدها عن العاصمة الهندية ، حيث يعيش كبار موظفى الحكومة ، ويتقاضون مرتبات ضخمة يرتفع معها مستوى المعيشة ، فتتضخم أسعار الحاجيات . ولقد رأيت بضائع فى كراتشى ، ثم شاهدت مثيلها بعد ذلك فى دلهى ، فوجدت أن الثمن فى العاصمة قد قفز إلى أربعة أمثال ! ولا شك أن شاطئ « كليفتون » هو أجمل ما رأيت فى تلك المدينة ، فقد بنى على طراز شاطئ « انجليزى معروف بهذا الاسم أيضاً . وتقود إليه درجات مرمرية عريضة ، تتخللها

ممرات طويلة ، ظلت بالأقواس المقامة على أعمدة جانبية ؛ فإذا انتهت الدرجات والممرات رأينا رمالاً متسعة تنتهى بالبحر . وفي ركن من الشاطئ الرملى يقوم معبد هندوسى أثرى ، لم تشأ الحكومة أن تهدمه ، خشية غضب الرأى العام ، فبقى فى مكانه مأوى للحمام الذى يعيش فى سقفه ، ويستظل بنوافذه ، ويحلق فوقه أفواجا كبيرة ، ثم يهبط عليه ، فيكاد يخفيه تحت أجنحته البيضاء الجميلة . ولقد أضفى المعبد الهندوسى جمالا عجيبا على الشاطئ الأوربى ، فخرجت من الإثنين صورة تذكرنا بمجد الهند القديم ، وأثر الصنعة الغربية فيه .

ويقبل الناس على زيارة الشاطئ طوال العام ، ويجدون فيه متعة خلال الصيف والشتاء ، لأن البحر رفيق بكراتشى ، يغمرها بنسيم عليل عند ما يشتد القيظ فى البلاد ، ويبعث إليها بهواء دافئ يحد من قسوة شتائها الصحراوى .

وعلى رمال « كلفتون » يجلس عشرات من بائعى الأصداف يقصدونه كل يوم مبكرين ، وينصرفون عنه وقت غروب الشمس . وهؤلاء الباعة مثل صادق للصبر الهندى العجيب ، فهم يأتون كل صباح إلى الشاطئ ، ويسطون على رماله قطعة

كبيرة من النسيج الأبيض ، يغطونها بآلاف الأصداف بعد صفها في أشكال هندسية دقيقة . يأخذ الصف منهم معظم ساعات النهار ، فإذا انتهوا تكون الشمس على وشك الغروب ، فيجمعون ما بذلوا الجهد في تنظيمه ، ويودعونه حقائبهم الخشنة ، وينصرفون به إلى بيوتهم ، ليعودوا في الصباح التالي ، ويبدأوا العمل من جديد !

وبكراتشي ثلاثة فنادق كبيرة ، يقع كل منها في حي هام من أحياء المدينة ، وجميعها مبنية على الطراز الهندي ؛ أى مكونة من طبقة أو طبقتين على الأكثر ، أرضها وجدرانها من البلاط ، وغرفها بسيطة متواضعة ، وتحيط بتلك الغرف شرفات خشبية واسعة ، تقوم على أعمدة تتخللها الأقواس . ونوافذ الفنادق وأبوابها مغطاة بستائر من «الحصر» يمكن رفعها أو إنزالها وقت الحاجة ، وهى تقوم مقام «الضلع» الخشبية فى بلادنا ، وتوجد الستائر «الحصر» فى كل مبنى هندى ، فلما سألت عن السبب قيل لى : إنها مجدولة من نبات خاص يعتبر مكيفاً للهواء ، وعند ما تشتد الحرارة فى الصيف ، ويصبح جو الهند خانقاً ، ترش هذه الستائر بالماء ، وتسقط عليها المراوح الكهربائية ،

فتخف وطأة الحرارة ، ويدور في البيت تيار هوائى لطيف ،
يجعل الحياة محتملة بين الجدران .

وخدم الفنادق عادة من الهندوس ، لأن هذه الطائفة تمثل
سواد الشعب . وتقاليدها الدينية تحرم عليها تقبل الطعام والشراب
من يد لا يعتنق صاحبها هذا الدين ، أما الطوائف الأخرى
كالمسلمين والمسيحيين والسيخ والبارسى ، فلا يدينون بمذهب
التفرقة ؛ ولا مانع لديهم من أن يخدمهم أى كان . والسبب ذاته
أيضاً نجد أن الهندوس لا يقبلون من الخدم فى منازلهم إلا من
كان هندوسياً مثلهم ، أما خدم المسلمين فخايط من جميع
الأديان .

وأعتقد — إن كان لى أن أحكم بما رأيته — أن فنادق
الدرجة الأولى فى بلاد الهند لا يمكن أن تصل إلى مستوى
مثيلاتها فى مصر ، من حيث الأناقة والاستعداد والخدمة وجمال
الرياش . وليس معنى هذا أن الفنادق الهندية قذرة مثلاً ، كلا .
فهى على العكس من ذلك نظيفة ومنظمة ؛ ولكن الملاحظات
كالحمامات والأدوات الصحية فيها ليست على ما ينبغى أن
تكون . وقد يرجع تفوقنا فى هذه الناحية إلى وقوع مصر فى

ملتقى الطريق بين الغرب والشرق ، وقربها الشديد من أوروبا ، وإقبال السائحين عليها أفواجاً من أنحاء العالم ، مما يقتضى توفير سبل الراحة والرفاهية لهم . ولا شك أن ازدهام المدن الهندية خلال سنوات الحرب ، وازدياد الإقبال على الفنادق ، وتعذر بناء الجديد منها ، قد خفض مستوى هذه الأماكن العامة عما كانت عليه وقت السلم .

ومن الزيارات التى أثلجت صدرى بكراشى ، وملأت نفسى بالرضا ، تلك التى قمت بها إلى مدرسة أهلية تابعة لحزب المؤتمر : فقد تبين الساسة والمصلحون أن عاهة الهند الأولى جهل أبنائها ، لذلك وقفوا جهداً طيباً ، ومالا وفيراً على محاربة الأمية ونشر الثقافة المناسبة ، ففتحو مدارس عدة ، لتلقين أبناء الفقراء مبادئ العلوم والصناعات . وكانت مدرسة كراتشى إحدى هذه المدارس ، وهى بناء ضخم واسع : به غرف دراسية كثيرة ومعامل للكيمياء والتاريخ الطبيعى ، وقاعات واسعة مجهزة بالآلات والمغازل والمناسج ، يتعلم الصبية والفتيات فيها غزل القطن والحرير ونسجهما ؛ وهى مهنة مربحة تكفل للطلبة بعد التخرج رزقاً طيباً .

وقامت تلك المدرسة على أسس التوفيق الحقيقية فبدأت صغيرة ثم كبرت على مر الأعوام . وكان المدرسون في عهدها الأول يعلمون التلاميذ في الحقائق العامة تحت قبة السماء ، فلما زاد الإقبال وتوافر المال نصبوا خياماً ، أعقبتها أكواخ خشبية ، انقلبت أخيراً إلى بناء ضخم جميل .

ويسرنى أن أقول إن حزب الجامعة الإسلامية يهتم أيضاً بهذه الناحية ، ويفتح المدارس في بعض البلاد ، ولكن المدارس الإسلامية ما زالت معدودة ، لقلة موارد المسلمين بالنسبة إلى موارد الهندوس .

وتقتصر الملاهي في مدينة كراتشي على دور « السينما » ، ويقبل الناس عليها من جميع الطبقات ، لأن معظم هذه الدور يتوخى عرض الأشرطة الهندية فقط . وقد تقدمت صناعة الصور المتحركة هناك تقدماً ملحوظاً ، بحيث أصبحت تدر على القائمين بها مالا وفيراً ، وتلبي رغبات الشعب الكثيرة في هذه الناحية . وما يدعو إلى الاغتياب أن الأسر الهندية الطيبة لا تأنف أبداً من أن يشغل أبنائها أو بناتها بالتمثيل والرقص ، لأن التمثيل والرقص هناك فنان جميلان يلحظان بالتقدير والفخر والإعجاب .

وتمتاز الأشرطة الهندية بطولها ، حتى ليعرض المتوسط منها في أربع ساعات على الأقل . وتقوم موضوعاتها على الأساطير الهندية القديمة ، وعلى قصص ملوك الزمان الغابر ، وما ناله هؤلاء الملوك من مجد ، ثم غضب الآلهة عليهم ، فتشريدتهم وفقرهم وذلتهم ، وعودة الطيبين منهم إلى المجد مرة أخرى بعد تذوق نصيبهم من العقاب .

وجل المناظر مأخوذة من المعابد الهندوسية المقدسة ، التي تنتشر في جميع أنحاء الهند ، وتحتشد بشتى أنواع الأوثان ؛ فلا هندوس آلهة لا حصر لها : منها واحد للرحمة ، وثنان للقسوة ، وثالث للعفاف ، ورابع للشهوة إلى آخر هذه السلسلة الطويلة التي تمثل نواحي الطبيعة البشرية على تعددها وتنوعها .

ولا يكاد يخلو شريط سينمائي من الغناء والرقص ، والغناء في الهند شرف جميل ، تقوم أسسه على الأنغام لا الكلمات . أما الأنغام فخليط من الفارسية والمغولية والهندية ، والكلمات بدعة مستحدثة ، فالغناء الكلاسيكي لا يحوى شيئاً منها ، ويقتصر على نغمات يدندن بها المطرب ساعات طوالاً .

والهنود جميعاً يقدسون فن الغناء ، ويعتبرون النبوغ فيه

صلة إلهية ، تمكن صاحبها من القيام بالمعجزات ، فهم يؤمنون
مثلا بأن المطرب التاريني « تانسنج » كان إذا أنشد أغنية الماء
تساقطت الأمطار بغزارة ، والشمس ساطعة في كبد السماء !
ويروون عنه قصصاً مختلفة منها أنه أنشد يوماً لأحد الملوك أغنية
النار فأوقدت شموع القصر المظفأة . ولا سبيل مطلقاً لمناقشتهم في
هذا الموضوع ، أو محاولة إقناعهم باستحالته ، فهم جميعاً على اختلاف
مذاهبهم ، وتفاوت درجات ثقافتهم يؤمنون بصدق هذه القصص
إيمانهم بالله والدين .



والرقص الهندي رائع
كل الروعة ، ولكن
الغريب يحتاج إلى تكرار
مشاهدته ، حتى يتمكن
من تقديره وفهمه . وهو
فن دقيق صعب يتطلب
مرانة طويلة ؛ ولذلك
يتعلمونه في الصغر ليتقنوه
في الشباب .

لغة اليدين في الرقص الهندي

وعمداد هذا الفن مرونة الحركات . ولغة اليدين والوجه ؛
فكل لمحة أو تعبير تعنى شيئاً ، وكل حركة بالذراع أو الكف
تدل على شيء آخر ، ولا بد أن يعرف المتفرج هذه اللغة ، ليقف
الفلسفة أو القصة التي يدور الرقص حولها . والرجال كالنساء
يرقصون في الهند ، ويحركون رقابهم ، وأيديهم ، وعيونهم ،
وحواجبهم طبقاً لقواعد تلك اللغة الصامتة ؛ ولأن الرقص في
الهند فن رفيع كما ذكرت سابقاً ، فمن المألوف أن نجد ضابطاً
عظيماً أو موظفاً حكومياً كبيراً يتقن الرقص ومارسه علانية .

وأول ما يسترعى النظر في كراتشي وفي غيرها من المدن
الهندية ، كثرة البقر في الطرقات ، وما لها من سلطان على الحياة
العامة ، فصاحبة الجلالة البقرة الهندية تتمتع بتكريم وتبجيل
وحرية لا تتوافر لخير أفراد الشعب ، وذلك لأن الهندوس
يعبدونها ، ويعتبرونها أم الله ، لأنها تدر لبنا يهب الحياة للناس
ومن أجل هذه المنزلة الرفيعة تجول قطعان البقر في الطرقات كما
يمحلوها ، فلا يجروا أحد على إيدائها أو إبعادها عن طريقه . وقد
تقتحم الحوانيت في بعض الأحيان ، فإن كان صاحب تلك
الحوانيت هندوسياً ، تركها تعيث في المكان فساداً ؛ أما إذا

كان مسالماً ، وحاول إخراجها قسراً ، قامت معركة دينية حامية بين الطائفتين قد تراق فيها الدماء ، ونذهب الأرواح .
والبقرة أنواع ، وتمظيمه يختلف تبعاً لما يحمله من علامات وشارات ، والبقرة التي تحمل الشارة المقدسة ، تنال أعلى مراتب التكريم والإجلال ، فيحتفظ بها المتدينون في دورهم ، ويقدمون لها خير الطعام ، ويزينون قرونها بجذائل الزهور ، ويتبركون ببولها ، ويدهنون المطابخ والجدران بروشها ليقبل السعد على البيت ، وتعم الخيرات !! وأمثال هؤلاء قليلون والحمد لله في الهند .
وتقوم الديانة الهندوسية أصلاً على عبادة الروح ، وتقديسها ، ولو كانت لأحقق الحيوانات والحشرات . وتعالى الأقلية المتعصبة في هذا النوع من العبادة ، حتى إنهم ليرفضون قتل برغوث أو قملة أو بعوضة ، ويتركونها تمتص غذاءها من دماهم ، مع عامهم بأمرها تحمل ميكروب الطاعون والتيفوس والمalaria الخبيثة !
والأشجار الكبيرة قدسيتها أيضاً ، ولذلك لا يُسمح لبستاني أن يقطع غصونها أو يشذبها ، فتنبو على فطرتها ، وتتكاثر أغصانها ، وتتشابك فروعها تما يعوق المرور في بعض الأحيان .
وأذكر عندما غادرت كراتشي المرة الثانية في طريقي إلى

دلهى ، أن ذهبت إلى المطار فى سيارة ضخمة من سيارات نقل المسافرين ، فوصلنا من الطريق إلى منطقة تشابكت أغصان أشجارها حتى تعذر على السيارة أن تمر بسهولة ، واقتضى الحال من السائق أن يضاعف قوة المحرك ، لينتزع طريقه بين الغصون وارتفع صوت المحرك ، فكاد يسم الأذان ، وتلته قرعة الغصون وهى تتحطم ، فانزعج الجالسون ، وانبرى أحدهم — وكان أجنبياً حضر إلى الهند حديثاً — لتأنيب الضابط الهندوسى المرافق لنا على ترك الأشجار متشابكة هكذا ، فنظر الضابط إليه بسخرية وقال : — تذكر يا سيدى أنك فى الهند ، حيث يمكنك إذا أردت أن تقتل رجلاً ، ثم تسير آمناً فى طريقك ؛ ولكنك لن تنجو أبداً إذا ذبحت بقرة ، أو قطعت غصناً من هذه الغصون !

وبسبب هذه الأشجار يشتبك الهندوس والشيعه فى بعض الأحيان ؛ فلاشيعه هناك مظاهرات دينية يحملون فيها المشاعل والبيارق ومختلف الزينات العالية . وقد يحدث أن تمر تلك المظاهرات بمناطق تشابكت أغصان أشجارها ، فيتعذر عليهم المرور من تحتها بما يحملون ، فيأبى عليهم كبرياؤهم الدينى إنزال ما بأيديهم ، فيسعون إلى تحطيم الغصون ، وإذا ذاك تنشب

معركة دامية بينهم وبين الهندوس ، قد تنجلي عن قتلى وجرحى كثيرين .

ويبدو أن الحياة البشرية في الهند أتفه قيمة من حياة الحيوان والأشياء ، وكرامة المشاعل والأعلام ، فمن أجل هذه الأشياء يتقاتل الإخوان ، ويسفك بعضهم دم بعض .

قد يتبادر إلى الذهن بعد تكرار ذكرى للمسلمين والهندوس أن بلاد الهند لا تحوى غير هاتين الطائفتين ، ولكن الواقع غير ذلك ، فهناك شيع عدة ، وأديان كثيرة يختلف أصحابها في الزي واللغة والدين والتقاليد والعادات . ولقد أثبتت الإحصاءات التي قام بها سير چون جريسون عام ١٩٣١ أن عدد لغات الهند يبلغ خمسا وعشرين ومائتي لغة ؛ فالبنغالي لغته ، والبنجابي رطانتة ، والسندى لسانه الخاص ، وهكذا إلى آخره . وتختلف هذه اللغات بعضها عن بعض كل الاختلاف ، بحيث يتعذر على الهندى فى أى مقاطعة فهم ما يقوله إخوانه من أبناء المقاطعات الأخرى .

وتتعدد الأديان أيضا تعدداً يباعد بين الناس ، وينفر بعضهم من بعض ، فأكثر سكان الهند من الهندوس ، ويليه المسلمون

فهم مائة مليون أى ربع الشعب ، وبين الإثنين ما نعرف من تطاحن وعداء .

أما السيخ فستة ملايين ، ويعيش معظمهم فى البنجاب ، وترجع ديانتهم إلى القرن السادس عشر ، عند ما ظهر مصلح كبير اسمه « جورونانك » ، لم يعجبه الخلاف الدائم بين المسامين والهندوس ، ففكر فى التوفيق بينهما ، وضم صفوفهما ، لذلك بشر بديانة جديدة ، اشتق تعاليمها من الديانتين ، فجمع فيها بين الفلسفة الهندوسية ، وبين توحيد الاسلام وبعض تشريعاته ، وعاداته القديمة ، مثل تحريم الخمر والتدخين وإطلاق شعر الرأس واللاحية . ولم تلق دعوة « جورونانك » ما كان ينشده من إقبال ، فلم تصبح ديانة الهندوجيما ، واقتصرت على فريق محدود فقط . ومع قلة عدد السيخ اشتدت قوتهم أخيراً باقبالهم على التطوع فى الجيش خلال الحرب العالمية الأولى والثانية ، وهم يعتزون بهذه القوة ، ويرفضون الخضوع لحكم الهندوس أو المسامين ، وينشدون الاستقلال بأنفسهم .

والمسيحية فى الهند أتباع ، يبلغ عددهم أربعة ملايين ؛ فلقد نشطت جماعة المبشرين خلال القرون الماضية وخاصة فى الجنوب

وقد مت من الثقافة والوظائف مارغب الفقراء والمنبوذين في اعتناقها . ومعظم المسيحيين يعيشون في مقاطعة « تراڤنكور » حيث يكونون ثلث عدد سكانها ، ويدخل المولدون ، وهم أنصاف الهنود وأنصاف الأوروبيين ، ضمن هذه الطائفة .

وهناك جماعة أخرى قليلة العدد عظيمة القوة والنفوذ في الهند وهم الپارسی أو عبدة النار الذين يعيشون في بمبای ويسيظرون على التجارة والصناعة ودور المال . وقد أتقنوا هذه النواحي ، وبرعوا فيها ، فأصابوا من المال ما لا يحصى ولا يعد ، وامتلكوا أعظم مصانع البلاد ، وأكبر شركات الطيران والتصدير والفنادق فيها .

ولا يقتصر الأمر على هذه الطوائف ، فهناك أقليات أخرى مثل « الجين » ، والپوذيين الذين يقطنون المناطق الجبلية في شمال الهند .

ولو أن الهنود جميعاً اقتنعوا بأن الدين رابطة شخصية تصل العبد بربه ، لكان الأمر ، ولكنهم يدخلونه في السياسة والمجتمع بحيث يتعذر التفاهم ، ويستحيل التعاون ، ويشيع الخصام والقتال ، وتكون النتيجة أن تعيش كل طائفة مستقلة بجوانبها

ومطاعمها وأماكن نزهاتها، فلا يتم الاختلاط إلا بين طبقة محدودة من المثقفين .

والعجيب أن الهنود إذا خرجوا من بلادهم — وقد فعلوا ذلك خلال سنوات الحرب — نسوا الفروق ، وعاشوا معاً في صفاء وصداقة ومحبة متبادلة . وأذكر أنهم كانوا يتوافدون على بيتي ، فيجلسون معاً ، ويأكلون معاً ، ويتبادلون أطيب التحيات والحديث ؛ ولكنهم يعودون إلى التقاطع والتشاحن بعودتهم إلى وطنهم ، وتصيبهم حمى الانقسام مرة أخرى ، فيتفرقون شعبياً ومذاهب ، ويدب النفور والعداء ، بعد الصداقة والوئام . ومع تعقد المشكلة الهندية، فتلك الظاهرة توحى بإمكان التعاون والصداقة في الهند ، مادام قد أمكن وجودهما خارجها ، ولعل الجهل هو سبب الانقسام الأول ، فنسبة المتعلمين ضئيلة ، والامية ما تزال تخيم ثلاثة وتسعين في المائة من الشعب . ونحن نعرف أن الجهل مبعث التعصب ، لأنه يحول بين صاحبه وبين تفهم روح الديانات على حقيقتها ، وتطبيق مبادئ الإخاء والإنسانية التي تنطوي عليها كل عقيدة في العالم .

ويؤيد نظريتي في إمكان التعاون ، ما يبدو في بعض المناطق

الهندية من التعصب للعنصرية ، فهناك مثلاً فريق اسمه « الراجبوت » يؤمنون بأنهم انحدروا من النار لا من الطين . و بعض قبائل الراجبوت مسامة ، و بعضها الآخر هندوسى ، ومع ذلك تراهم يناصر بعضهم بعضاً أمام أى قوة ، ولو كانت من دينهم ، لأن رابطة العنصر أقوى فى اعتقادهم ، وأحرى بالتقديم على كل شىء آخر . وقد حدث فى الانتخابات أن رشح راجبوتى هندوسى نفسه فى قرية راجبوتية مسامة ، ونافس مسلم من غير تلك الطائفة . فأنحاز أهل القرية إلى الراجبوتى الهندوسى و نصروه على أخيه فى الدين . وهم يفعلون مثل هذا فى الخلافات والمشاجرات والعراك ، فتتضاءل العقيدة أمام رابطة الدم .

٣

اقترب موعد انعقاد المؤتمر النسائى ، فغادرت كراتشى بعد إقامة دامت ستة أيام ، وأخذت القطار إلى مدينة حيدر آباد السند ؛ ووقفت فى نافذته أتأمل صحراء السند الشاسعة ، وقد امتدت رمالها أميالا وأميالا ، فلا يكاد يتخلل تلك الرمال غير قرية صغيرة أو قريتين .

وكان في رفقتي سيدتان من أعضاء المؤتمر ، إحداهما انجليزية ،
والأخرى هندوسية من طبقة « البراهما » أى الأشراف ؛ فلما
وقفنا بالمحطة التالية ، كان العطش قد اشتد بى ، وتناقت نفسى
إلى قدح من الشاى ، فالمشروبات والطعام لا تتيسر إلا بالمحطات ،
ولا يقدم شىء منها أثناء المسير ، لأن كل ديوان فى القطارات
الهندية ينفصل تماماً عما يليه ، وبابه الوحيد يفتح ناحية الرصيف
بحيث يستحيل على المسافر الخروج إلا عند الوقوف .

وبمناسبة القطر الهندية أقول إن مستواها قد انخفض كثيراً
خلال الحرب ، لأن الحكومة أخذت أفضلها ، ونقلته إلى
ميادين القتال ، وتركت للأهلين ما تبقى ، وكله عتيق قديم .
والعربات هناك معدة للسفر الطويل ، لاتساع أرض الهند ،
وبعد المسافات بين المدن ، ولذا لا يكون بالديوان عادة
إلا سرير أو سريران أو أكثر للنوم عليها فى الليل ، والجلوس
بالنهار .

والمسافات بين البلاد الهندية أعظم من أن يتصورها غريب
مثلى ، وقد يستغرق السفر من بلد إلى بلد أسبوعاً أو عشرة أيام .
وأذكر عند ما كنت فى زيارتى الثانية لكراشى أى سألت

هندياً أمدينة دلهى بعيدة ؟ فنظر إلى دهشاً لجهلى بجغرافية البلاد ، وأجاب :

..... طبعاً لا ، فهى قريبة جداً ، ولن يأخذ القطار إليها أكثر من ثلاثة أيام !

قلت سابقاً إن العطش اشتد بى ، وتاقت نفسى إلى قدح من الشاى ، فلما وقفنا على المحطة التالية ، رأيت الباعة يتنقلون فيها ، ويعرضون بضاعتهم على المسافرين ، فطلبت من زميلتى الهندوسية أن تطلب من أحدهم ما أريد ، فنادت أول بائع وقع نظرها عليه وأبلغته الطلب . وتطلع الرجل إلى وجهها ، فلما رأى على جبينها نجمة الهندوس الحمراء ، قطب وقال بخشونة :

— لا . لا يمكننى أن أبيعك شيئاً ، فأنا مسلم ، ولا أخدم غير المسلمين .

وكانت زميلتى واسعة الصدر متسامحة ، لأنها قضت عشر سنوات فى أوربا فلم تعد تؤمن بالخلافات الطائفية التى تستنفد جهد بلادها ، وتدفعها الى الوراء ، فابتسمت فى وجه الرجل ، وأجابت برقة :

— اننى حقاً هندوسية ، ولكن ليس لدى مانع من أن

أتناول الشراب من يدك ، بل يسرني في الواقع أن أفعل ذلك !
 وأشرق وجه البائع المسلم ، وشاع الرضا في عينيه ، وقال معذراً :
 — لا أرى الآن ما يمنعني من خدمتك ، فنحن جميعاً أخوة
 ننحدر من أم واحدة ، وما تقاعست إلا لأن بني دينك
 يرفضون عادة التعامل معنا .

وأحضر لنا الشاي مسرعاً ، وتفانى في خدمتنا ، فكان يعود
 إلينا بعد ذلك في كل محطة تالية ، ويسألنا عما نريد .
 ولا شك أن هذه الواقعة تدل دلالة واضحة على أن التعصب
 يصدر من الهندوس أولاً ، ويميل عليهم تصرفات تغضب
 المسامين ، وتثير كرامتهم ، فيردون تعصباً بمثله ، أو أقوى منه ،
 ويقابلون القطيعة بقطيعة قد تكون أشد وأقسى .

ومما يدعو إلى الارتياح اضمحلال هذا الروح بين الطبقات
 الراقية والمتعلمة ، بل فقدانها فعلاً بين المتسامحين المتنورين من
 الطرفين ، ولكن أمثال هؤلاء قلة في الهند ، وكثرة الشعب
 ما زالت منغمسة في رذيلتي الجهل والتعصب .



بعد سبع ساعات طويلة بطيئة وصل القطار بنا أخيراً إلى

حيدر آباد السند ، وهى غير حيدر آباد لكن المشهورة بحاكمها « النظام » أغنى أغنياء العالم . ولم أكن أعرف أحداً بهذه المدينة غير زعميات المؤتمر اللواتى أتيت لى فرصة مقابلتهن فى كراتشى ؛ فنزلت من القطار ، وأنا مرتبكة بعض الارتباك ، فرأيت سادة المدينة يقفون فى انتظارنا ، ويتسابقون نحونا ، ليفوز كل منهم بدعوتنا قبل الآخرين ، فنكون ضيوفاً على بيته خلال انعقاد المؤتمر .

ولم يكن هناك بد من قبول الضيافة ، فتلك المدينة على كبرها وشهرتها ، لا تحوى شيئاً من وسائل الراحة ، ولا أثر فيها لفنادق الدرجة الأولى والثانية ، وكل ما هناك أنزال صغيرة لا يمكن سيدة أن تحتل الحياة فيها .

ومدينة حيدر آباد السند موطن أغنى أغنياء الهند ، يخرج التجار الهند منها ، فينتشرون فى جميع أنحاء العالم ، ويجمعون الملايين من تجارة التحف والحريز ، ومع ذلك فهذه الأغنياء هذا مهمل متأخر إلى درجة لم أر لها مثيلاً فى المناطق الأخرى : فالطرق غير معبدة ، مليئة بالأتربة والأحجار ، تقوم على جانبيها قنوات مكشوفة لتصريف المخلفات والمياه القذرة ، فتنبعث

من تلك القنوات روائح كريهة تفسد الجو، وتملؤه بأفواج الذباب.
وتكتظ تلك الطرقات بعدد لا يحصى من البقرات ، التي
تضرب بأظلافها الأتربة ، وتشيرها في الهواء ، وتسبب بمجموعها
الزاخرة سبيل المرور في أحيان كثيرة . ولقد اضطررت أكثر
من مرة إلى الوقوف بالسيارة وراء جموعها المحتشدة ، حتى تتفرق
من تلقاء نفسها ، وتسمح لنا بالمسير ، فمن المكروه في الهند أن
يتعجل الإنسان تلك الحيوانات المقدسة، ويفرقها بالدفع أو اللكز.
ولا أكون مغالية إذا ذكرت أنني مدة إقامتي بمدينة حيدر
آباد السند لم أرتشف قطرة واحدة من الماء ، لأن الماء فيها مغبر
عكر ، تستطيع العين المجردة أن تتبين فيه أتربة وأجساماً صغيرة
سابحة . وعلى ذكر الماء أقول إنهم في الهند لا يحبونه بارداً ،
ولا يستعملون الثلج في الشتاء على الرغم من دفء الجو في هذا
الفصل ، بل على العكس يسخنونه على النار أحياناً ، ويقدمونه
دافئاً للشرب !

ولم أفهم في بدء الأمر فلسفة عقد المؤتمر في هذه المدينة ،
ولكنني عرفت فيما بعد أن الولايات تتناوب دعوة المؤتمر ، ويقوم
ساداتها بجميع نفقاته ؛ وكان الدور على السند ، وعاصمتها حيدرآباد .

وقام الأعيان في الواقع بواجبهم على أكمل وجه ، فوزعوا
الأعضاء على بيوتهم ، وأكرموا وفادتهم ، وتنافسوا في الكرم ،
لينال كل منهم فخر الأسبقية على إخوانه ؛ فكانت موائد الإفطار
تمد كل صباح ، وعليها من الأطعمة ما لذ وما ندر .

وكان من أبلغ مظاهر كرم مضيفي الهندوسى تقديمه البيض
على المائدة ؛ فالهندوس لا يأكلون اللحم والبيض ، لأنهم
يقصدون الروح ، والمتدينون منهم يحرمون طهى الصنفين .
وكانت أم مضيفي من هذا الفريق ، وأراد ابنها أن يوفق بين
إكرامنا ، وبين المحافظة على شعورها ، فاجأ إلى جيرانه ، فكان
يطهى البيض في بيوتهم ، ويحمله إلينا كل صباح !

وعندما انكشف لنا هذا الأمر — وكنا الثلاث اللأى جمع
بينهن القطار — بذلنا المستحيل فى إقناعه بإهمال البيض ، توفيراً
للمشقة والعناء اللذين يكابدهما ، فأبى كل الإباء ، وظل إلى النهاية
يحمل البيض بيده ، ولا يكاف الخدم ، خشية أن يتأفقوا من
القيام بهذا العمل .

و بيوت حيدر أباد أشبه بقلاع ضخمة : تبدأ عند الطريق
بباب خشبي كبير ، يرتفع من خلفه سلم ذو درجات قصيرة متتابعة ،

وتنتهى الدرجات بدهليز ضيق طويل يقود إلى درجات ودهاليز أخرى ، تؤدي إلى أجنحة البيت التي يعيش الأبناء فيها مع زوجاتهم وأطفالهم .

والبيوت على كبرها وضحامتها بسيطة في الداخل ، ليس بها إلا الضروري من الرياش والأثاث ، لأن أهل السند الأغنياء لا يعيشون في مدينتهم بل يقضون جل العام في بمباي ، أو في خارج بلاد الهند ، ويعتبرون حيدرآباد موطن الآباء والأجداد ، ومن أجل ذلك يزورونها شهراً كل عام على الأكثر ، ويبخلون بالنفقات على بيوتها المغلقة طوال السنة .

وكنا ننام في هذه البيوت ، ونتناول وجبة الإفطار فيها ، أما الغداء والعشاء ففي مدرسة قريبة ، غصت أبهاؤها بالموائد الطويلة . وتنقسم الموائد قسمين : أحدهما للنباتيين ، وهم الهندوس الذين يحرمون أكل اللحم والبيض ، ويكتفون بالخضروات والبقول ، والقسم الثاني لغير النباتيين أمثالي من أصحاب الديانات الأخرى .

ويسير النظام في الغداء والعشاء على الطريقة المتبعة هناك ، فتقدم إلى الآكلين ألوان لا عداد لها ، قوامها الأرز ،

و«الكارى» وهو اللحم المطهى بالتوابل اللاذعة ، ثم الخضروات المختلفة ، والفطائر المملحة ، واللبن المحتر المحلى بالسكر ، والحلوى على أنواعها . والطريف أنهم يطهون الأرز كما تفعل نحن ، ولكنهم يقسمونه على أوان مختلفة ، ويصبغون أرز كل آنية منها بلون ، بعد ذلك يخلطونه فى الصحون ، فتبدو تلك الصحون جميلة الشكل وهى مليئة بالأرز الأحمر والأخضر والأصفر والأبيض . ويختلف الخبز باختلاف ألوان الطعام ، فلا يعطى مع الفطائر شىء منه ، والخضروات عادة يصحبها الخبز الأوروبى ، أما «الكارى» فيقدمونه مع «الچباتى» وهى خبز مستدير الشكل ، بالغ الرقة ، يحمر فى الزيت حتى يتشبع بالدهن . والهنود على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم يحبون مضغ «البان» بعد الأكل و«البان» عبارة عن ورقة شجرة البان وهو نبات متسلق يوجد فى الهند . ويطلون الورقة بمادة شديدة المرارة فى لون العسل الأسود ، ويرشونها بمواد يدخلها «الچبان» و«جوز الطيب» ومسحوق الجير إلى غير ذلك من المواد التى يتعاطونها هناك . وتطبق الورقة على شكل مثلث ، وتقدم للراغبين . وتصطبغ الأسنان عادة بلون البان ، ولذلك يلاحظ أن أسنان

الموسرين محمرة اللون ، أما أسنان الفقراء فتكاد تكون سوداء لأن الموسرين ينظفون أسنانهم بطبيعة الحال كل صباح ، وهو أمر غير ميسور للفقراء .

ولقد مكنتني الإقامة في كراتشي وحيدرآباد السند من الاطلاع على بعض نواحي الحياة هناك : فمن العادات الشائعة أن يتناول الناس طعامهم جالسين على الأرض ، في صفوف متقابلة . وأمام كل جالس صحن نحاسي واسع يشبه « الصينية » في بلادنا مع تفاوت يسير يتلخص في انخفاض جوانبه . وترص حول الصحن أوراق أشجار مختلفة الأشكال والحجوم ، ويوضع الطعام الأساسي في الصحن الأوسط ، والألوان الفرعية على ما حوله ، فالخبز مثلاً على ورقة التين ، و« الخلل » على ورقة المانجو ، والملح على ورقة التفاح إلى آخره ، مثلما نفعل في الطريقة الحديثة المعروفة « بالسرفيس أمر يكان » ! وقد لا يوجد الصحن النحاسي بالمرّة وإذ ذاك يغرف الطعام في قطعة كبيرة من ورق الموز . ويخلع الهندوس أحذيتهم خارج حجرة الطعام ، ويدخلون إليها حفاة ، لأن لتلك الحجرة حرمة خاصة .

هذه طريقة الأكل بين سواد الشعب ، ولكن الموائد

والهندود جميعاً من هندوس ومسامين ونصاري وسينخ وپارسی
يفضاون تناول الطعام بأيديهم ، ولا يستعملون الشوكة والسكين
حتى على ظهور أنفخ البواخر التي تنقلهم إلى أوربا وأمريكا .
ولا يسمح أن نهزو ذلك إلى تأخر ، أو جهل بضرورة استعمال
هذه الأدوات ، فقصور أغنيائهم ، وبيوت موسريهم عامرة
بمختلف أنواعها الفاخرة ، وإن لم يستعملوها ؛ ولكنهم يأكلون
بأيديهم ، لأنهم يؤمنون بأنها طريقتهم الوطنية الشرقية ،
فلا يسمح التخلي عنها من أجل عادات غريبة تافهة في نظرهم .
وتدفعهم هذه الروح أيضاً إلى التمسك بالزي الهندي ، ومن
النادر أن ترى رجلاً منهم بغير سرواله الوطني الأبيض ،
أو امرأة لا ترتدي العساري . وتفخر النساء الهنديات بالصاري ،
ويذكرن عن عقيدة ثابتة أنه أجمل أزياء الدنيا ، وهي حقيقة ،
فالعساري رداء رائع الجمال ، يلتف حول أجسادهن الطويلة النحيلة
فيزيدها رشاقة وجمالاً .

وكان اظهوري بالزى الأوروبى رنة كبيرة من الدهشة فى

الهند ، وسألني الناس تباعاً عما حدث لمصر ، حتى تترك زيارتها
الشعبية ، وتتشبه بالغرب ، فاضطرت عشرات المرات إلى توضيح
هذه المسألة ، وأفهمتهم أنه لم يكن للمصريين ملابس خاص ،
وثيابهم التي عرفوها قرناً بعد قرن مقتبسة من غيرهم ، بحكم
العناصر المختلفة التي توالى على البلاد ، وبحكم موقع مصر الدولي !
ولم يكن لتوضيحي أثر كبير في إقناعهم ، فكانوا يهزون
رؤوسهم أسفاً ، ويقترحون على أن أقوم بدعاية واسعة في بلادى ،
فأبشر بزي الصارى ، وأدعو المصريين لارتدائه . ولا أظن
أننى سأقوم بتلك الدعاية ، فالصارى على جماله ثوب غير عملي ،
لا يناسب امرأة تقترح الحياة العامة وتشترك فيها ، فهذه الطبقات
الحريرية الملتفة حول الجسد حتى أخمس القدمين تعوق الحركة ،
وتضطر صاحبتها إلى البطء والحذر ، ونحن الآن في زمن السرعة
والسبق ، وعلى الواحدة منا أن تشق طريقها في الشوارع
والسيارات العامة وعربات الترام ، مما يفسد الصارى ، ويقلب
نظامه رأساً على عقب !

وقد لاحظت بمناسبة الأزياء الهندية ، أن الصارى يسير
على نمط واحد لا يتغير ، فليس هناك مثلاً صارى بسيط للصباح ،

وثان حريرى للعصر ، وثالث مرقش أنيق للمساء ، كما هو عرف الملابس المتبع فى كل مكان ؛ فالهندية المقتدرة ترتدى فى الصباح ما ترتديه فى المساء من ثياب مطرزة موشاة بالذهب والفضة ، فتبدو طيلة اليوم مثل عروس تتهادى فى ثوب زفافها . وفى حيدر آباد السند شارع أنيق ، أطلق الناس عليه مجازاً اسم « طريق باريس » لأنه ماتقى شباب البلدة من الجنسين ، ومكان نزعتهم كل صباح ومساء ، فتسير فيه الفتيات زرافات ووحدانا ، فى أجمل ثياب وأتقن زينة ، وهو استعراض جدير بالمشاهدة ، لذلك قطعت « طريق باريس » أكثر من مرة ، لأرى جميلات السند يخطرن فى أروع الأزياء وأغلاها ، فإذا استرعت إحداهن الأنظار ، ذبلت عيون الأخريات حسداً وكداً !!

ويقوم فى نهاية « طريق باريس » منتدى صغير ، تحيط به حديقة غناء ، فرشت أرضها بالحشائش الخضراء . وفى هذا المنتدى يلتقى الأثرياء ، وتقام حفلات الزواج ، الذى يبدأ عادة فى « شارع باريس » بنظرة فابتسامة فلقاء !

وحيدر آباد السند مركز هام لصناعة الحرير ، وتوزيمه فى

أنحاء العالم ، وتمتاز عن المناطق الأخرى ، بالأنسجة السندية الشهيرة ، المطرزة بنقوش حمراء ، والمرصعة بالمرايا الصغيرة ، فإذا ارتدت السيدات هذا النسيج ، وسرن به في الطرقات ، انعكست أضواء الشمس على المرايا الصغيرة ، فتلتمع وتضيء كأنها ماسات !

٤

ذهبت إلى حيدر أباد السند من أجل حضور المؤتمر النسائي الهندي ، ولم أكن أعرف قبل ذلك قليلاً أو كثيراً عن قيمة هذا المؤتمر ، ومبغ نجاحه ، بل لم أكن أعرف شيئاً يذكر عن المرأة الهندية ، ومدى اهتمامها بشئون السياسة والمجتمع ، ولذلك لم أضع برنامجاً خاصاً ، ولم أقرر نوع الموضوعات التي سأتناولها بالحديث ، وتركت الأمر لحين وصولي ، وإطلاعي على حقيقة الحال هناك .

دهشت جداً عند ما تبينت في كراتشي أن حديث الهند قاطبة يدور حول المؤتمر ، وبخاصة أن معظم الدول الغربية قد اشتركت فيه ؛ فقد أقبلت مندوبات عن الولايات المتحدة الأمريكية ، وإنجلترا ، ونيوزيلندا ، وأستراليا ، والسويد ومصر ولبنان ؛ وهو

حدث جديد ، فلم يسبق أن اشتركت كل هذه الدول مجتمعة في مؤتمر نسائي هندي .

وقد يكون السبب في هذه الظاهرة اتساع الأفق السياسي خلال الحرب ، مما هيا الأذهان في مختلف الأقطار إلى ضرورة التعاون من أجل توطيد دعائم السلم العالمي المنشود .

وازداد سرورى عند ما قرأت برنامج المؤتمر ، ووجدت أن المرأة الهندية المتعلمة ستتناول بالبحث جميع مشكلات بلادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ وبذلك سهلت رسالتى ، فوضعت برنامجى ، وقررت أن تنال مشكلة فلسطين جهدى الكامل ، لأنها فرصة لاتعوض أن نعرض القضية على مندوبات الغرب ، ونسمعهن وجهة النظر العربية التى قلما وصلت على حقيقةها إلى بلادهن .

ولم تكن مهمتى سهلة أو يسيرة ، فنحن نعرف ما بين الهندوس والمسلمين من عدااء مستحكم ، يدفع كل فريق منهما إلى التخلي عن القضية التى يدافع عنها الفريق الآخر . وشاء الحظ أن تكون فلسطين من بين تلك القضايا التى لاتنال تعاضيد الطرفين معاً ، فقد أعلن المسلمون فى الهند أنها مشكلة إسلامية بحجة ،

عليهم الدفاع عنها بتأييد العرب، وتوطيد حقهم الشرعي في البلاد المقدسة . وقاموا فعلاً بجهد مشكور ، وبعث محمد علي جناح زعيم الجامعة الإسلامية خطاباً إلى نائب الملك يستفسر فيه عن اتجاه السياسة البريطانية بخصوص فلسطين ، فأجاب نائب الملك بخطاب رسمي يعد فيه بأن لا تتخذ حكومته قراراً قبل الرجوع إلى العرب واستشارتهم ونيل موافقتهم .

ولما سمع الهندوس بهذا الأمر تخلوا تماماً عن القضية الفلسطينية ، ولم يظهروا اهتماماً بها ، فتسربت وجهات النظر الصهيونية إليهم ، ووجدت منهم استجابة وقبولاً .

ولقد تبينت هذه الحقيقة لدى وصولي نجشيت أن أخفق في رسالتي ، لأن أكثر أعضاء المؤتمر من الهندوسيات ، فقد انفصلت المسلمات عنه منذ سنوات بانفصال المسلمين عن حزب المؤتمر ، فلم يبق فيه منهن غير عدد قليل لا يتعدى أصابع اليد ، وهذا العدد يتكون من سيدات لا يدن بمذهب حزب الجامعة الإسلامية السياسي . لما تبين ذلك قررت أن أقوم بدعاية تمهيدية واسعة ، لأقنع الهندوس بخطأ ظنهم ، وأفهمهم أن مشكلة

فلسطين قضية وطنية لا دينية ، يجب أن يؤيدها كل من ينشد
العدالة ، ويطالب بحرية الشعوب الصغيرة .

وانتهزت فرصة الحفلات التي أقيمت لى ، والاجتماعات
الصحفية المختلفة فتحدثت خلالها عن فلسطين ، وعن حق
العرب الشرعى فيها ، ودحضت الادعاءات الصهيونية المنتشرة
هناك ، فكان لأحاديثي أثر واضح ، ظهر على صفحات الجرائد
فى صورة مقالات تلخص أقوالى . وأقبل الناس على قراءة تلك
المقالات بشغف ، ورحبوا بوجهات النظر العربية ، فلم تمض
أيام معدودات حتى كان الهنود على تباين عقائدهم يتحدثون عن
فلسطين بمطف ظاهر .

وهنا آخذ على العرب تقصيرهم الخزى فى الدعاية لقضيتهم
العادلة ، واقتصرهم على الخطب والمقالات التى لا تتعدى حدود
بلادهم ، ولا تصل أبداً إلى آذان الغرب . أما الصهيونيون فلا
يلقون من الخطب إلا قليلاً ، وينفقون جهدهم الكامل وأموالهم
الطائلة فيما هو أجدى من الخطابة ، فيقومون بدعاية واسعة ،
وينشرون مطالبهم فى جميع أنحاء العالم ، فيؤازرهم الناس ما داموا
لا يعرفون شيئاً عن أقوال الآخرين وحججهم . وأذكر أنه بعد

الخطابات التي ألقيتها في المؤتمر ، والكلمات التي أدليت بها إلى الجرائد عن فلسطين أقبلت على بعض مندوبات الغرب فأبدى منتهى العطف على قضيتنا ، وسجلن اقتناعهن بشرعية المطالب التي ذكرتها ، وقوة الحجج التي عرضتها . وسألني في عجب كيف يسكت العرب كل هذا السكوت ، فلا يرسلون إلى العالم الخارجي من يعرض الأمر على محاكم الرأي العام ، وأهين بي أن أطالب الزعماء ، عند عودتي إلى مصر ، بالاهتمام بناحية الدعاية الخارجية ، وقلن إن شعوبهن لو سمعت هذه الحجج لاقتنعت بها وأيدت العرب ، واضطرت حكوماتها لأن تقف موقفاً عادلاً .

وجدت إلى جانب القضية الفلسطينية أموراً معقدة أخرى ومع خروجها عن نطاق منهاجي ، رأيت من واجبي أن أشرحها للرأي العام ؛ وأطلع الناس على حقيقتها ، فقد وصلت إلى الهند اتهامات تسيء إلى مواقفنا السياسية ، وتنشر هالة غبراء حول بعض الشخصيات الكريمة في بلادنا .

وقمت بواجبي في هذه الناحية ، فشرحت مواقفنا للصحفيين ، وأثبت لهم سلامتها ، وعددت لهم مآثر تلك الشخصيات

الكريمة التي أساءوا الحكم عليها ، ونصيب هذه المآثر في رقي مصر وتقدمها ؛ فكانت الصحف تنشر بعض توضيحاتي ، وتغفل الإشارة إلى الكثير منها ، تجنباً لمقاعب الرقابة التي كانت ماتزال قائمة .

كان يوم افتتاح المؤتمر النسائي عظيماً مجيداً ، فقد امتلأ السراشق المقام في حديقة « الأكادومى » ، فكان به ما لا يقل عن خمسة آلاف نسمة بين رجال ونساء أقبلوا من جميع أنحاء الهند ليسمعوها في نجاح المؤتمر النسائي .



سروجينى نايدو بلبل الهند المنرد

وكانت رئيسة الشرف « ساروجينى نايدو » الشاعرة العالمية أو بلبل الهند المنرد كما يسمونها هناك . ولقد نالت دواوينها الشعرية الانجليزية شهرة عالمية ، وانتقلت مؤلفاتها إلى الدنيا القديمة والجديدة

فأصابت عالم القراء الأوروبيين والأمريكيين « حمى نايدو » ،
فأقبلوا على تصفح ما خطت باهتمام وإعجاب ثم هبطت هذه
الحمى تدريجاً ، كما حدث للشاعر « طاغور » من قبل .

وما زالت « ساروجيني نايدو » سيدة الهند الأولى ، لأنها
لا تقصر جهدها على الشعر فحسب ، بل تشترك أيضاً في سياسة
البلاد ، وتتزعم الحركات الوطنية ، مما جمع الناس حولها ، وأنزلها
في قلوب القادة منزلة كبيرة .

وقد ألفت الشاعرة المبدعة يوم الافتتاح خطاباً مرتجلاً باللغة
الإنجليزية هزت به مشاعر الحاضرين ، وبعثت السرور والتفاؤل
في النفوس ، فنالت من التحية شيئاً كثيراً . وتكاثرت عليها
عقود الزهور المجدولة ، فوضعتها حول عنقها ، حتى كاد جسدها
القصير البدين يختفي تحت أكوامها . والعقود عادة متبعة في الهند
يقدمها الناس دليل التقدير والتكريم والترحيب ، وهي مجدولة
من الزهور والورود المونقة ، ومتصلة بأسلاك رقيقة من الفضة
والذهب ، تشبه « التلي » الذي كان مألوفاً عند عرائس
الجيل الماضي .

وكانت السيدة « هانساميتا » رئيسة المؤتمر العاملة ، فألقت

خطاب الافتتاح بلغة انجليزية بليغة ، تناولت فيه مشكلات الهند السياسية والاقتصادية والاجتماعية والوطنية ، فعالجت كلا منها بذكاء ومقدرة وسعة اطلاع .

وأحب أن أذكر بهذه المناسبة ، أن أهم خطابات المؤتمر كانت تلقى باللغة الإنجليزية ، فهذه اللغة متداولة في الهند ومفهومة للجميع تقريباً . أما بقية الخطابات فكانت تلقى باللغات الهندية ، فلم نفهمها لعدم وجود مترجمات يشرحونها لنا .

وتوالت بعد السيدة «هانساميتا» مندوبات الدول الأجنبية ، فقدمت كل منهن تقريراً قصيراً عن جهود المرأة في بلادها ، ومطالبها الملحة للحاضر والمستقبل ، فلما حان دوري تكلمت عن مصر بصورة شاملة ، وختمت حديثي بفلسطين ، فوجدت أن الاهتمام عام بالقضية ، وتعالى الاهتمام للعرب ، فخرجت الجرائد في اليوم التالي بآيات التشجيع ، مما أكد لي أن المؤتمر سيتخذ قراراً حازماً بخصوصها .

وتبدد الأمل بعد ذلك بأيام معدودات ، عند ما أحسست أن بعض العناصر الرجعية القليلة تحارب فكرة اتخاذ القرار ،

خشية أن يكون في ذلك تأييد لوجهة نظر مسامي الهند ، وهو ما لا يتفق مع الخصومة القائمة .

وكانت تلك العناصر على قلتها قوية النفوذ ، فخفت أن تفسد على خطتي ، لذلك ضاعفت الجهد وواجهت اللجان المختلفة بأحاديث مطولة تشرح كل صغيرة وكبيرة من قضية فلسطين ، فكلل الله مساعي بالنجاح ، واتخذ المؤتمر قراراً حازماً يقول فيه :

« بما أن هذا المؤتمر يقوم من أجل السلام ، وينكر فرض إرادة الأمم القوية على الضعيفة ، فهو يرقب في قلق بالغ حالة فلسطين ، مهد العرب منذ قرون ، حيث بنوا ثقافتهم ، وعاشوا دائماً في أمن وسلام وتسامح مع أصحاب العقائد الأخرى . ولهذا يعبر المؤتمر عن أقصى عطفه القلبي ، وتأييده التام ، لمطالب الاتحاد النسائي العربي ، من حيث إلغاء تصريح بلفور ، الذي يعد اليهود بوطن قومي في فلسطين ، ضد رغبات العرب أهل البلاد الشرعيين . وهو يناشد الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا العظمى رفع هذا الظلم حالا . »

وقد أرسلت نسخ من هذا القرار إلى الدول العظمى وإلى الجامعة العربية .

وتوالت زعميات الهند على المنصة ، فألقت كل منهن كلمة بليغة في تأييد القرار ، فلما حل دور « لايدى رام راو » وهي من فضليات سيدات الهند ، وقفت أمام المذيع ، وأعلنت أنها تحملني رسالة شفوية من نساء الهند إلى أخواتهن العربيات ، وتتلخص هذه الرسالة في أن المرأة الهندية ، وقد عرفت الآن حقيقة القضية الفلسطينية ، ستتبع أمرها بذات الاهتمام الذي تتابع به قضايا بلادها ، وستحارب من أجلها إلى آخر نقطة من دمائها إذا اقتضى الحال .

وعند ما أخذ الرأي على القرار الفلسطيني ، أقرته الحاضرات بالإجماع ، ولم يتخلف صوت واحد عن التأييد .

كان القرار الفلسطيني واحداً من ستة وثلاثين قراراً أصدرها المؤتمر بصدد مشكلات الهند المختلفة . وفي الواقع أن نساء الهند ملأن قلبي بالإعجاب ، وهن يتوالين على المنصة كل صباح ومساء ، فيناقشن أعظم الموضوعات حيوية بحكمة وذكاء وسعة

اطلاع ؛ فكنت أحس في بعض الأحيان أنني أمام عقول جبارة صافية ، لا بد أن تصل إلى أهدافها عما قريب .

ومن أهم الموضوعات التي اتخذ فيها المؤتمر قرارات حازمة وجوب استقلال الهند ، وتسليم مقاليد الحكم لأبنائها ، حتى تتمكن البلاد من النهوض على أسس متينة من الحرية والتقدم والإصلاح .

وناقش المؤتمر مسألة حريات الشعوب الصغيرة ، فأيد أندونيسيا وطالب بسحب القوات الهندية منها .

ونال جيش الهند الحرة كل التأييد والتعزيد ، فدعت المرأة الهندية إلى وقف محاكمة ضباطه الثلاثة ، وإطلاق سراح جنوده المسجونين .

وطالب المؤتمر برفع الرقابة القائمة ، وإطلاق حرية الصحافة والنشر ، والإفراج عن المعتقلين السياسيين

وهجمت نساء الهند على سوء الإدارة ، والإهمال الذريع في اتقاء الأضرار التي نشأت عن فيضان البنغال ، وأدت إلى مجاعة ذهبت بأرواح الملايين .

وعالجت السيدات مشكلة نقص الكساء ، وقلّة المنسوجات

في الأسواق ، ولا سيما ما يقوم منها في الأرياف ، مما نتج عنه انتحار بعض السيدات ، لعدم توافر الملابس لهن . وطالبن الحكومة بزيادة المصانع ، وتحديد الأسعار ، حتى تجاب مطالب الشعب ، ويوضع حد لجشع التجار .

ولقد أطلت في حديث المؤتمر بعض الاطالة ، ولكنني أرى بذلك إلى نقطتين : أولاها توضيح الخلق الهندي ، فمشكلات المجتمع الخطيرة ، لم تخفف حدة شعوره بالأخوة نحو الشرقيين عامة ، والعرب خاصة ، فالهنود يعتبروننا أخوة أشقاء ، وينظرون إلى مشكلتنا باهتمام ؛ ويتتبعون أخبارنا بشوق . أما النقطة الثانية فهي إعطاء فكرة صحيحة عن المرأة الهندية المتعلمة ؛ وما تستطيع القيام به إذا تهيأت لها الفرصة ، ولا شك أنها تستطيع عمل الكثير ؛ فهي بارزة الشخصية ، سامية التفكير ، مستقيمة المنطق تدرس مشكلات بلادها في حذر ، فتتبين مواطن العلة ، وتعمل على علاجها بطرق تتمشى مع سياسة العالم المتعدين ، مع التمسك بالقومية الطيبة ، التي لا تتعارض هي وروح العصر الحديث .

وأعتقد عن ثقة أن مشكلات الهند الخطيرة ، التي تستنفد جهد الرجال ، وتشغل أذهانهم عن قضايا الوطن ، لو تخلوا عنها ،

ووكلا أمرها إلى المرأة ، لوجدت لها الحلول المرضية ، ولسكان
للهند شأن آخر ؛ فالهندية أسمى من مواطنها ، من حيث
الشخصية والإرادة والحكمة والحيوية ، وهي ملاحظة استرعت
أنظارى ، وأنظار كل غريب يزور هذه البلاد .

والتعاون مع المرأة الهندية المتعلمة يأتي بالخير العميم ، ولسكننا
معشر النساء المصريات لانستطيع أن نتخذ خطوة كهذه فى الوقت
الحاضر ، فعلى الرغم من أننى حملت رسالة كتابية حارة ، لرئيسة
الاتحاد المصرى ، تناشدها فيها زعيمات الهند تكوين جبهة منا
ومنهن ، غير أن الخلاف الطائفى القائم هناك يحول بيننا وبين
الانحياز لأحد الفريقين ضد الآخر . وإلى أن يتصافى المسلمون
والهندوس لن نقبل بحال من الأحوال تشكيل الجبهة المنشودة ،
حتى لا يتفاقم العداء ، فتدخل بلادنا فى الخصومة القائمة .

وأحب هنا أن أعتب على العرب لإهمالهم شأن إخوانهم
الهنود ، وجهلهم العظيم بشئونهم ؛ فإذا ذكرنا الهند طافت بأذهاننا
شتى الغرائب والطرائف ؛ كأن الغرائب والطرائف هى كل ماتحويه
تلك البلاد الواسعة ، فى حين أنهم يعرفون عنا الكثير ، ويحملون لنا
حبا واحتراما وإعزازا ، ويتتبعون قضايانا بلهفة . وهذه المودة

والأخوة لا تجد صدى في صدورنا ، مع أنه تربطنا بهم روابط شتى من اللون والشرقية وبعض العادات والحن الماضية والحاضرة .



كنت أعتقد دائماً أن المرأة لا تستطيع أن تقوم بعمل وطني يذكر إلا إذا نالت من الحقوق الحيوية ما يكفل لها الأمن والاستقرار ، لأن الحياة في نظري أخذ وعطاء ، ولذا يتحتم على المجتمع أن يعطى إذا أراد أن يأخذ من الفرد جهداً ما .

هذه — على الأقل — هي القاعدة التي ينبغي أن يقوم عليها كل مجتمع متمدين ولسكنى وجدت غيرها في الهند ، فالمرأة المتعامدة هناك تقوم بواجبها الكامل نحو بلادها ، وتسهم في بناء صرح وطنها ، وتأخذ بيد المجتمع لتعيّنه على السير قدماً ، مع أنها محرومة من كثير من الحقوق التي تتمتع بها أختها في البلاد الأخرى ، فالمجتمع الهندي جشع إذاً لأنه يأخذ دائماً ولا يعطى شيئاً مقابل ما يأخذه !

والعجيب أن المرأة الهندية لا تحقد على مجتمعها من أجل ذلك ، بل تؤدي رسالتها في تسامح وسخاء ، وتطالب بحقوقها في

الوقت نفسه ، ولا تتوخى الشدة في المطالبة ؛ وهو سلوك لا أقرها عليه ، فالتهاون في مثل هذه الأمور لا يأتي بالنتيجة المرجوة ، والحقوق لا تسكتسب بالتسامح ، بل بالجهد والشدة والصراع . وقد أكون مخطئة فيما ذكرت ، ولكن لكل منا منطقته الذى يؤمن بصوابه ، ومنطقتى يقول إن المجتمع الذى يسلب المرأة حقوقها الحيوية يقوم على عنصر كره من أنانية الرجل ، لا يحد من جبروتها غير أنانية أشد وأقسى .

ولست أرى داعياً لأن تتفانى الهندية في خدمة مجتمعهما ، فلا تنال منه جزاء ولا شكوراً ، وتقابل بالنكران والجحود في كل مكان ؛ بدليل أن الهنود على اختلاف ألسنتهم وعقائدهم يتفقون معاً على نقطة واحدة وهى اضطهاد المرأة ، وغبنها من حيث مركزها الاجتماعى !

ويكفى لإثبات ذلك أن نستعرض حالة المرأة في كل طائفة من طوائف الهند ؛ فأكثر الشعب هناك من الهندوس .

والديانة الهندوسية لا تعترف بمكانة النساء ، ولا تقر لهن في المجتمع مقاماً جليلاً ، وتعتبر الرجل إله المرأة الذى حق عليها عبادته ، واحتمال قسوته دون شكوى أو تذمر ، فهى ظله ، ولا

يصح للظل أن يسمو إلى مكانة الأصل .

ومن أجل ذلك كانت الزوجة الهندوسية في الماضي تُحرق يوم وفاة زوجها وتدفن معه ؛ فتقبل على « المحرقة » التي اجتمع حولها الأقارب والأصدقاء وتقتحم نيرانها باسمه ، وذلك دليل الرضا والقبول ، فإن تراجعت حل العار بأسرتها ، فتنبذها لتعيش ما تبقى لها من الحياة طريدة شريدة .

وظلت هذه الشرعة متبعة قروناً وأجيالاً حتى تنبه المصلحون إلى ما تنطوي عليه من وحشية ، فقاموا ينادون بإبطالها ، ووضع القوانين التي تحرمها ، ونجحوا في حملتهم ، فمنع القانون حرق الأرملة وإن حرم عليها الزواج ثانية إرضاء للرأي العام !

ومنع زواج الأرملة إجحاف بالمرأة الهندوسية ، لأن زواج الأطفال كان معروفاً هناك إلى عهد قريب ، فكان من حق الوالد أن يزوج ابنته وهي في السنة الأولى من عمرها لصبي في مثل سنّها ، ثم يعطيها أهل زوجها ، فيحملونها معهم إلى بلدتهم لتنشأ مع قرينها جنباً إلى جنب ، فتعتاد أخلاقه ، وتألف عادات أسرته . وكان يحدث في كثير من الحالات أن لا يألف الطفلان بل يتنافران منذ بادى الأمر فتصبح حياتهما حياة شقية لا خلاص

منها إلا بالموت . وكان يحدث أيضاً أن يموت الزوج الصغير بعد مرض من أمراض الطفولة ، فيتحم على عروسه وهى ما تزال فى المهد أن تعيش أرملة إلى الأبد ، وأن تتجرع كأساً مريرة من الدل لأنها جلبت الشؤم على البيت فمات الإبن بعد دخولها فيه ! وقد منع القانون الحديث الزواج بين الأطفال ، ووضع له الرابعة عشرة سناً أدنى ؛ ولكن مشكلة الأرامل لم تحل بعد ، فما زال فى الهند عدد كبير من « الأرامل البكر » كما يسمونهن هناك ، يعشن عذارى ، ويمتن عذارى ، مهما بلغ بهن الشباب والجمال .

ولا شك أن القانون المدنى الإنجليزى قد خفف وطأة هذا الأمر قليلاً ، فأصبح فى مقدور الأرملة أن تلجأ إليه ، وتعتد زواجها فى مكاتبه ؛ ولكن مثل هذا العمل نادر جداً ، لأنه يتطلب شجاعة أدبية هائلة ، لمواجهة ثورة الأسرة ، واحتقار المجتمع الهندوسى .

وينادى المصلحون فى الوقت الحاضر بوجوب زواج الأرملة إن أرادت ، ووضع بالفعل قانون يبيح ذلك ، ولكن القانون لم يتقرر العمل به رسمياً إلى الآن ، بسبب العقبات التى تقوم فى

طريقه ، واعتراض الرجعيين ، ولهم في الهند نفوذ كبير .
 والمرأة الهندوسية لا تترث أبداً ، فإن توفي زوجها أو والدها
 لا تصيب شيئاً من ماله مهما عظم ؛ وتضطر في مثل هذه الحالة
 لأن تعيش كلاً على أفراد أسرتها ، اللهم إلا إذا كانت متعلمة ،
 وأرادت الاستقلال ، فإذ ذاك تقتحم الحياة العملية ، وتكتسب
 رزقها بعرق جبينها .

ومن أجل ذلك تقبل الهندوسيات على التعليم بشغف ،
 فتكون الأمية بينهن أقل منها في المسلمات ، ولكن نسبة التعليم
 مازالت ضئيلة ، والمتنقيات قليلات ، وأكثر النساء يذقن الأمرين
 من جراء هذا الذبن الاجتماعي الصارخ ؛ مما يدفع أرامل كثيرات
 إلى الانتحار بالسم أو النار ، فالآلام الموت تهون أمام ما ينتظرهن
 في الحياة !

ولا تقف آلام الهندوسية عند هذا الحد ، بل تتمدها إلى
 تقاليد الزواج ، فهي تخطب الرجل ، وتمهره مبلغاً من المال يرتفع
 أو ينخفض تبعاً لارتفاع أو انخفاض مركزه ، فلكل رجل
 ثمن محدد ، قد ينخفض إذا كانت المرأة على نصيب يذكر
 من الجمال .

والعادة الشائعة أن يبعث أهل الفتاة رسولا لخطبة الشاب الذي يختارونه ، فتدور المباحثات المالية أولاً ، وعليها يتوقف مبدأ القبول أو الرفض . ويغالى شباب الهندوس في تقدير الصداق مغالاة جعلت من الزواج تجارة رابحة ، دفعت ببعض الآباء إلى الانتحار ، لعجزهم عن توفير المال اللازم لزواج بناتهم .



وعلى العروس أيضاً إعداد حاجياتها من أثاث وأدوات فضية وملابس حريرية : فمن الأثاث فرش غرف المنزل ، ومن الأدوات الصحن والملاعق والسكاكين وأواني الزهور ، ومن الملابس عدد من ثياب المصاري يبدأ بواحد

مثل من أمثلة الجمال الهندي

وثلاثين ، ثم يرتفع إلى واحد وأربعين ، فواحد وستين ، فواحد

ومائة ، فواحد وألف ، تبعاً لمركز العروس ومبلغ ثراء أهلها !
 وطبيعي أن يفرح الهندوسي إذا رزق صبياً ، وأن يغتم كل الغم
 بالبنات . فالصبي يجلب ثروة طيبة ، الخراب في أعقاب زواج
 بالفتيات . وقد لاحظت أيضاً أن الابنة الجميلة تتمتع بمعاملة
 أفضل من أختها القبيحة ، لأن الجمال يخفض الصداق ، والقبح
 يضاعفه !

والروابط العائلية شديدة في الهند إلى حد يحرم الزوجة الشابة
 الحرية المحببة إلى كل امرأة ؛ فالمنازل كبيرة ، والأجنحة معدة
 لحياة الأبناء بعد الزواج ، فيعيش خمسون شخصاً في بيت واحد
 مثلاً ، ويتقيدون جميعاً بتقاليد رب الأسرة ، ولا يفعل أحدهم
 إلا ما يحلو لعميد البيت أو عميدته .

والأم سلطان كبير على زوج ابنها ، فلا تجلس أمامها دون
 استئذان ؛ ولا ترفع في حضرتها الغطاء عن رأسها ، ولكن هذه
 التقاليد قد خفت وطأتها كثيراً بين القلة المتعلمة .

أما الهندية المسلمة فقد منحتها الدين حقوقاً كثيرة ، ولكنها
 لا تستفيد منها ؛ فيحكم الجيرة والحياة المشتركة اقتبس مسلمو الهند
 بعض العادات الهندوسية ، فهم مثلاً لا يورثون المرأة عملاً بقانون

« التقاليد » فإذا التجأت إلى المحاكم تطلب نصيبها ، لا تجد من يعير قضيتها اهتماما ، لأن قانون التقاليد قائم معترف به رسمياً في البلاد .

وقد حدث أخيراً بعض التعديل ، فأعطى المسلم حق اختيار القانون الذى يطبق على ورثته بعد وفاته ، فإن أوصى كتابة بقانون الشريعة ورثت المرأة طبقاً لتعاليم الدين ، وإن لم يوص وهو ما يحدث غالباً — طبق قانون « التقاليد » ، ولا فائدة بعد ذلك من الجدل والمقاضاة .

ويدل هذا التصرف على أن مسلمى الهند لا يفهمون روح دينهم الحق ، وإلا لنفذوا تعاليمه الجوهرية ، وحققوا العدالة الإسلامية التى هى فى نظر الحق والإسلام أهم من الاقتصار على أداء فريضة الصلاة ، وصيام شهر رمضان !

ويقف الحجاب أو « البرّدا » عقبة كثودا فى طريق تقدم الهندية المسلمة ، وهو حجاب عجيب ، يلتف حول الجسد ، ويغطيه من قمة الرأس إلى أخمص القدمين . وأمام العينين فتحتان صغيرتان ، تغطيها طبقة من النسيج الشفاف ، لا يكاد البصر يتبين من خلالها شيئاً . وبعض النساء لا يكتفين بهذا الحجاب

فإذا ركن عربة غطين مقدمها بقطعة كبيرة من النسيج الثقيل حتى لا تقع أبصار المتطفلين على حجاب من يجلسن في الداخل . وإذا عرفنا أن شتاء الهند دافئ وقصير ، وأن صيفها طويل قائلنا أمكننا أن نتصور الهندية المسلمة ، وهي تتصبب عرقاً بين طيات كفن الأحياء الذي ترتديه ؟

ويحول الحجاب دون التحاق المسلمات بالمدارس ، والمساهمة في شئون المجتمع ، ولذلك يتفشى الجهل بينهن ، وتكون نسبة التعليم فيهن أقل منها في الهندوسيات . ومما يدعو إلى السرور خروج الطبقة المتنورة على « الپرڊا » ، وإقبال نساؤها على الثقافة وخدمة المجتمع ، فبرز منهن سيدات لعبن أدواراً مجيدة في الجهاد السياسي والاجتماعي . ومن بين هؤلاء « بيجام شاهنواز » التي اقتحمت أكثر من معركة انتخابية ، فخرجت ظافرة منتصرة ، وأصبحت عضواً عاملاً في المجلس التشريعي . وهناك أيضاً « بيجام جناح » شقيقة محمد علي جناح زعيم حزب الجامعة الإسلامية ، وهي تقود الحركة السياسية بين السيدات وتوجهها توجيهاً صالحاً ؛ ولكن مثيلات بيجام شاهنواز وبيجام جناح قليلات جداً مع الأسف .

ولقد لاحظت أن بعض القرويات الهندوسيات يتحجبين « بالبردا » أيضا ، فمجببت لأن دينهن لا يفرض ذلك فلما سألت عن السبب قيل لى إنهن اقتبسنه من المسلمات ، فأصبح عادة متبعة بين بعض الأسر القروية . ويرجع السبب فى اقتباسه إلى الأمراء الذين حكموا المقاطعات فى قديم الزمن ؛ وكان بعض هؤلاء شهوانيا ، يعيش من أجل الملاذ ، فإذا رأى أحدهم وجها جميلا أمر باحضار صاحبة الى القصر ولو كانت متزوجة . وتكررت المآسى ، وتعاضل البلاء ، فحجب هندوس تلك المقاطعات نساءهم ، لتعجز عين الحاكم الشرير عن تمييز الوجه الجميل من القبيح ! وعلى مر الأجيال زال خطر الأمراء من هذه الناحية ، ولكن الحجاب أصبح عادة متبعة لدى بعض القرويين من تلك الطائفة . وفى الواقع أن حالة المسلمين فى الهند أثارت فى نفسى كثيرا من التأملات ، وأعادت الى الذهن ذكريات بلاد أخرى شاهدها ، فحزنت لتأخر عامة الشعوب الإسلامية ، وتقهقرها فى ميدان المدنية والتقدم .

وعندى أن جوهر العلة فى ذلك جهل المسلمين بحقيقة روح دينهم ، وإساءة تطبيق تعاليمه ، باهمال شأن الأوطان ، وحرمان

المرأة من العلم ، وتقييدها بالحجاب وغيره من الخزعبلات .
والنتيجة أن تأخر المسلمون في موكب الحضارة ، واحتلوا منه
مكان الذيل ، فأساءوا الى أنفسهم ، وجلبوا الاتهامات لدينهم
ظالماً ، فنظر العالم المتمدين اليها ساخراً وقال : إننا متأخرون
لأننا مسلمون !

وديننا المجيد برىء من كل ذلك ، فقد رسم لنا حياة لا تتوافر
لغيرنا ، ومنحنا من الشرائع الرشيدة ما يكفل لنا العدالة والرقى
والتقدم ؛ واعترف بمقام المرأة الجليل في المجتمع ، ومنحها من
حقوق التعلم والتعليم والتجارة والزراعة ما يرفعها فوق هامات
الأخريات ؛ فأغضضنا عيوننا عن هذا الخير العميم ، واستعصنا عن
الجوهر بالعرض ، وشغلنا المظاهر والتمسك بالأعراض عن
واجبنا الحقيقي الذي يعليه علينا روح ديننا الحنيف ، ألا وهو
خدمة بلادنا والعمل الدائب على ترقية أخلاقنا ، والسمو بمجتمعنا ؛
والإسلام الصحيح روح ومبادئ .

وفي الحق أن المسلم العارف لأصول دينه ؛ المدرك لروح
تعاليمه من يعمل لدنياه كما يعمل لآخريته ، فيؤدي الفرائض
ويجاهد أيضا في خدمة بلاده ورفع شأنها بالقضاء على الجهل

والتأخر ، ليرتفع بذلك شأن دينه في أعين الآخرين . ألم يقل الله تعالى في كتابه العزيز : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » . ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا من ترك الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » ؟

هذا كلام الله سبحانه وتعالى ، وحديث رسوله الكريم ، وفي الإثنين دعوة تحض المسلمين على خدمة دنياهم والعمل لآخرتهم ؛ فهل عمل المسلمون بقول الله ورسوله ؟ أعرف أنهم يقدمون لآخرتهم ، فيصومون شهر رمضان ، ويؤدون فريضة الصلاة ، ويبنون الجوامع الكبيرة ، فبذلك يلبون شرطاً واحداً من دعوة ربهم ، فأين نصيب الشرط الآخر ؟ وماذا عملنا لدنيانا ؟ ؟ إن شعوبنا تتخبط في ظلمات الجهل ، ونسبة التعليم فينا هزيلة ، ولذلك تأخرنا وتخلفنا عن موكب الحضارة ، فسبقنا الغير ، وكنا أحق بمكان الصدارة . ولو أننا عملنا لدنيانا مثل ما قدمنا لآخرتنا ، فاقصدنا في تشييد الجوامع ، لبناء المدارس ونشر التعليم ، أو أتبعنا سنة المالك الذين كانوا يقيمون معهداً علمياً بجوار كل جامع بنوه ، لحسن حالنا ، وزايلنا جهلنا ، وتقدمت شعوبنا .

إن الإسلام دين البساطة، وحسب المسلم رقعة نظيفة من الأرض يصلى فيها، فتكون صلاته مقبولة عند ربه، كما لو صلى في أكبر الجوامع وأفخرها. ألم يقل الله تعالى في كتابه العزيز « والله المشرق والمغرب، فأينما تولوا، فثم وجه الله ». ولكن المدارس لا يمكن أن تقوم في أى رقعة نظيفة من الأرض فحسب، ونشر الثقافة ومحاربة الجهل يتطلبان تشييد دور العلم، وتخصيص الأموال للانفاق عليها، وهى فرصتنا الوحيدة للتقدم والرقى، ولنا من أجلها عند الله الأجر والثواب.

واعتقد أن الذين يأخذون الإسلام على أنه صوم وتسبيح وبناء مساجد فحسب، ينأون عن روحه الصحيحة التى يؤيدها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ».

واستميع القارىء عذراً لجوحى عن الموضوع، ولكن الذكرى تحرك الشجعون، وتثير الغضب على من يؤذون خير الأديان، وهم لا يشعرون.

نعود الآن إلى حديث النساء فنقول إن « البارسى » أو عبدة النار فى الهند فئة صغيرة إذا قيست بالمسلمين والهندوس،

ومع ذلك فهي جماعة هامة لا يصح إغفال شأنها، لمهارة أفرادها، وتفوقهم في ميادين التجارة والصناعة ؛ فدانت لهم كنوز البلاد، واقتنوا ثروات لا تحصى أموالها ولا تعد .

والمرأة « البارسي » من الخصائص ما يميزها من غيرها ، فهي بيضاء اللون وللدماء الفارسية التي تجري في عروقها أثر في هذا . وبفضل اتساع ذهن البارسي وتسامحهم حسن مركز نسائهم ؛ وبفضل المال الوفير . تفتحت أمامهن أبواب العلم ، فاخترن الأجنبي منه ، وتخرجن في الجامعات الانجليزية بنجاح ، ولكنهن مع الأسف اتبعن خطوات أهل طائفتهن من حيث التشبه بالسكسون في الحياة والتصرفات وأسلوب الحديث والتواء اللسان !

وقد يكون السبب في تعلق المرأة البارسي بأهداب الأجنبي ، ما يمليه شعور الأقليات من تصرفات شاذة في بعض الأحيان ؛ وقد يكون السبب أيضاً وفرة المال ، فامتلات بالغرور، وأحست أنها ترتفع فوق مستوى مواطنيها ؛ ولكن النتيجة على كل حال أن فقدت ميزاتها كهندية حرة ، وأصبحت مخلوقاً عجيباً ، ما هو بالأوروبي ، لاختلاف اللون والتقاطيع والعبادة والعادات ،

وما هو أيضاً بالهندي ، لشذوذه عن الحياة المألوفة عند الهنود .
ولا شك أن تشبه البارسي رجالاً ونساء بالأوروبيين ، وتعلقهم
بأهداب المدنية السكسونية ، قد أبعد قلوبهم عن الهند ، وشغلهم
عن قضاياها الوطنية .

وفي الهند فريق آخر من الشعب يبعث وجوده الحزن والرثاء ،
وهو فريق المولدين ، أنصاف الهنود وأنصاف الأوروبيين ،
ويعرفون هناك باسم « الأنجلو إنديان » . وهنا أحب أن أوجه
النظر إلى أن هذا الاسم لا يطلق أبداً على من كانت أمه انجليزية
ووالده هندياً ، فان هذا يعترف بهنديته ، ويعتبر هذا الاسم إهانة
لا تغتفر؛ وإنما يطلق فقط على من كانت أمه هندية ووالده إنجليزياً .
وكان هذا الفريق — أى نتاج الأم الهندية والأب
الإنجليزي — ينظر إلى إنجلترا كوطنه وبلاده ، وظل على هذا
الشعور أحياناً ، مما أفقده احترام الهنود و صداقتهم ؛ ولكن
الإنجليز أنكروه ولم يعترفوا قط بانجليزيتهم ، فعاش أهل تلك
الفئة حيارى ، لا يعرفون لأنفسهم وطناً أو مصيراً .

ويعانى نساء الأنجلو إنديان احتقاراً اجتماعياً شاملاً، فالإنجليز
يزدرونهن ، والهنود يمتنونهن ، وأبواب المجتمع والوظائف المحترمة

مغلقة في وجوههن ، فكانت النتيجة أن انحطت أخلاق
بعضهن انحطاطاً شديداً ، وساء سلوكهن ، وتمرغن في الرذيلة ،
فازددن شقاء على شقاء .

هذه نظرة إجمالية تشرح لنا حالة نساء الهند على تعدد
عقائدهن وأجناسهن ، وترينا أن المرأة في تلك البلاد ما زالت
محرومة من حقوقها الاجتماعية التي تكفل لها التقدم والأمن
والاستقرار .

ولكن الهندية مع حرمانها من ذلك ، تتمتع بحق التصويت
والانتخاب ، وهو تاج الحقوق الذي لا تناله المرأة عادة حتى
تستكمل مطالبها الحيوية الأخرى . ومن دواعي السرور أن
الهندية تمارس هذا الحق بشجاعة واستقلال في الرأي ، غير متأثرة
بموامل داخلية أو خارجية . وقد قابلت سيدات أعطين
أصواتهن في الانتخابات من يخالفون أزواجهن في الرأي والمبدأ ،
فضربن بذلك مثلاً أعلى في فصل السياسة والصالح العام ، عن
العلاقات الزوجية وصلات القربى والرحم .

من أبرز ما يراه المسافر إلى الهند في الوقت الحاضر يقظة سياسية جديدة لم يسبق لها مثيل في تاريخ تلك البلاد ، فقد صُوِّر لنا الهنود في الماضي صورة المستسلم الراضى ، حتى أساء العالم الخارجى حكمه عليهم ، وظن الناس خطأ أن الاستسلام والرضى طبيعة فيهم . والحقيقة أن الهندي ليس مستسلماً أو ذليلاً بل هو أبى جسور ينشد الحرية ، ويتوق إليها كغيره من أبناء الشعوب الأخرى ، فإن كان قد خضع واستكان ، فقد فعل ذلك مضطراً أمام مشكلات اجتماعية معقدة ، شغلت ذهنه عن قضية بلاده .

وفي الهند الآن يقظة سياسية شاملة ، فالنفوس ثائرة على الاحتلال ، والشعب أجمع يسعى إلى تحطيم تلك الأغلال التي أذلتها طويلاً ؛ وإن انقسم الناس فريقين : أحدهما — وهم الهندوس — يطلب الاستقلال بلا قيد ولا شرط ، والآخر — وهم المسلمون — يضع لذلك الاستقلال بعض القيود والاشتراطات التي يراها لازمة لحفظ كيانه ، وتأمين نصيبه من العدالة الاجتماعية .

وبلاد الهند مدينة بهذه اليقظة للحرب العالمية الثانية ، فقد جُنِدت منها جيوش قوامها مليونان ونصف مليون مقاتل ، وأرسلت تلك الجيوش عبر البحار إلى عالم كان الهنود يجهلونه من قبل ، فنزلوا بلاداً تتمتع شعوبها بالحرية والاستقلال ، ورأوا كيف يكون الحال عندما يحكم الشعب نفسه ، وعندما يحكمه أجنبي تحول مصالحه الشخصية دون التقدم والإصلاح .

وحمل الجيش الهندي رسالة الحرية إلى بلاده ، فأمن الكل بها ، ووازنوا بين أنفسهم ، وبين غيرهم ؛ وخرجوا من الموازنة بنتيجة تقول : إن حالتهم الحاضرة لن تصل بهم إلى التقدم والرقى . وليس أدل على اليقظة الشاملة ، ومبلغ قوتها في بلاد الهند ، مما حدث لجيش الهند الحرة ؛ فعندما حارب الحلفاء في سنغافورة ساعدتهم جيش هندي كبير يرأسه ضباط ثلاثة أئدهم مسلم والثاني هندوسي والثالث سيخ ، فلما سقطت سنغافورة بقواتها في يد اليابانيين ، عرض هؤلاء على الجيش الهندي أن يحارب في صفوفهم ، مقابل وعد ككاتبى باستقلال الهند ، وتحريرها تماماً عند النصر .

وقبل الهنود عرض اليابانيين ، وانضموا بقواتهم إلى صفوفهم

وأطلقوا على أنفسهم اسم الهند الحرة ؛ فلما سقطت سنغافورة ثانية في يد الحلفاء ، أسروا الجيش الكبير ، وسجنوا جنوده ، وقدموا جميع ضباطه إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى .

وكان الأمر سينتهي بهم حتماً إلى الإعدام ، لولا أن قام الشعب الهندي قومة واحدة ، واجتمعت جهود الهندوس والمسلمين والسيخ ، للمطالبة بإطلاق سراحهم حالا ، بحجة أنهم حاربوا مع اليابانيين رغبة في تحرير الهند ، وهي رغبة تملأ قلب كل هندي ، فإن كانت تلك الرغبة جريمة فليحاكم أهل الهند جميعاً !

وقامت المظاهرات في كل مكان ، واشتبك القائمون بها والحاكمون في معارك دامية ، فأطلق الرصاص ، ومات كثيرون ، فلم يثن الموت الهنود عن جهادهم . واشتد ضغط الرأي العام ، وتفاقم الغضب والسيخط ، حتى أُنذرت الحالة بقرب وقوع ثورة أهلية خطيرة .

وقامت المرأة الهندية في هذا الجهاد بقسط كبير ، فتصدرت صفوف المجاهدين ، وتزعمت حركة إنقاذ الجيش ، وتناقش المؤتمر النسائي في هذه النقطة ، وأصدر قراراً حازماً يشارك به الرجال

في استنكارهم المحاكاة ، ويطالب بحرية الضباط والجنود .
 وأجيببت الرغبة العامة أثناء إقامتي بالهند ، وأوقفت المحاكاة
 فعلا ، وأطلق سراح القادة الثلاثة وضباطهم . ولا أظن أنني
 سأنسى ذلك اليوم ما حييت ، فقد خرجت الجماهير هاتفة مهللة ،
 وازدانت البلاد بالأعلام والمشاعل والأنوار ، ووضعت الشموع
 الصغيرة الموقدة متقاربة على أرصفة الشوارع ، وبين غصون
 الأشجار ، فبدت مدينة دلهي ، وكنت بها إذ ذاك ، متناهية
 الروعة والبهاء .

وعند ما عدت إلى مصر قرأت في الصحف أنباء من الهند
 تشير إلى إعادة محاكمة القائد المسلم وأحد الضباط من بني دينه ،
 فلما استفسرت عن السبب علمت أن إيقاف المحاكمة كان خطوة
 جريئة من جنرال أو كملك حاكم الهند العام .^١ وقد قام بهذه
 الخطوة مدفوعا بمطغنه الظاهر على الهنود ، وتقديره الكامل
 للشعور الذي يدفعهم إلى وقوف مثل هذه المواقف ؛ وهو التقدير
 الذي جمع حوله قلوب الهنود جميعاً ، مع أنه يمثل المستعمر الذي
 يكرهونه . ويبدو أن جنرال أو كملك أمر بإيقاف المحاكمة ،
 وإرضاء الهنود ، دون الرجوع إلى حكومته ، وأخذ مشورتها ،

ففوجئت بريطانيا بقراره المتسامح ، فثارت النفوس في داووننج ستريت ، وراجعت حكومته بشدة ، مما اضطره إلى إعادة النظر في قراره السابق ، وتهدة الرأي العام في بلاده ، بتقديم كبش الفداء في شخص هذين الضابطين ، بتهمة جديدة أمكنه التوصل إليها وإثباتها ؛ وهي تهمة القسوة في معاملة الجنود الذين رفضوا التعاون مع اليابان . وقد قامت الأدلة في المحاكمة على أن الضابطين كانا يغاليان في قسوتهما ، فيعلقان الجند الراقضين من أرجلهم ، ويأمران بجلدهم جلداً مبرحاً ، فحكم عليهما من أجل ذلك بالسجن بضع سنوات .



هذا مثل واحد من أمثلة كثيرة لليقظة السياسية في الهند ، وللاوعى الاجتماعى الذى كشف الغشاء عن أعين الهنود ، فأروا ما لم يروه من قبل ، وتبينوا مواطن الضعف ، فساد التذمر ، وعمت الشكوى ، وترددت بها الألسن ، وأفعمت القلوب برغبة جامحة فى التحرر ، حتى يصفوا الجو ، وتنطلق أيدي المصلحين فى وضع المشروعات التى تلج العلال الحاضرة ، وترفع شأن البلاد . وقد لاحظت الثورة السافرة ، ورأيت القلق البالغ ، وسمعت

شكوات مريرة ، فتمحدث مع هندی كبير أعتقد أنه لا يبالغ كثيراً في كلامه ، واستوضحته طبيعة الأمور التي يشكو الناس منها ، فسررد على كلاما طويلا ، أورد فيما يلي أهمه في نظري .

يقول صديقي الهندي : إن حالة الحكم في البلاد لا ترمى إلى تقدم وإصلاح ، بل تعمل على بقاء العلات والعيوب ، حتى لا يرتفع للهنود شأن ، أو تقوم لهم قائمة ؛ فميزانية التعليم مثلا مقصورة على الأموال التي تجبي من الضرائب المفروضة على الخمر ، والهندوس وهم معظم الشعب لا يشربون الخمر ، والمسلمون وهم البقية لا يتذوقونها ، فالخمر المستهلكة إذا قليلة في الهند ، وأموال ضرائبها ضئيلة لا تكفي تعليم فئة صغيرة من الشعب .

وتبيح الحكومة الهندية تداول المخدرات ، وفي إمكان كل إنسان أن يشتري الأفيون من أقرب بدال إلى بيته ، ولهذا التساهل ينغمس فقراء الشعب في هذه الرذيلة ، فتتدهط الصحة العامة ، ويزداد هزال الناس جيلا بعد جيل ، ويباغ بهم نخول الذهن والبدن حداً يمنهم من القيام بأعمالهم على أكمل الوجوه .

وبلاد الهند مرتع خصيب لمختلف أنواع الأوبئة والأمراض ،

فالتيفود والتيفوس والجدرى تنتشر انتشاراً فاحشاً ، ومع ذلك لا يوجد قانون يحتم الحقن والتطعيم لوقاية الأهالى ، والأمر متروك لرغبتهم الخاصة ، اقتداء بالنظام القائم فى الجزر البريطانية ، ولكن الجزر البريطانية لا تتعرض للأخطار بسبب عدم انتشار تلك الأمراض هناك ، وظهور حالة منها كل سنوات ؛ أما حالة الهند فتختلف عن ذلك ، فالجدرى والتيفود والتيفوس تفتك بأرواح عشرات الآلاف كل عام ، مما لا يقبل معه المنطق تطبيق قانون واحد على البلدين .

والهند على كبرها ، ووجاهة مدنها الحديثة لا تعرف نظام المجارى ؛ والفضلات تجمع فى مخازن يكسحها المنبوذون يومياً ، وفى ذلك إضرار بالصحة العامة ، وتعقيد لمشكلة هذه الطبقة من الشعب .

ونظام الحكم مشوه فى الهند ، فالبلاد تنقسم قسمين : أحدهما فى يد الإنجليز ، والثانى مقاطعات يحكم كلاً منها « مہراجا » أو « نظام » طبقاً للنظم الاقطاعية القديمة . وبعض هؤلاء الحكام عادل يعمل لخير شعبه ورفاهيته ، والبعض الآخر ظالم جائر يعيش من أجل المتعة وجمع المال . ولا تتدخل السلطات فى أمر

هذه المقاطعات ، وبذلك تشتري ولاء حكامها ، فيقرضونها مئآت الملايين في الحروب والأزمات . وقد أقرض أحدهم الحكومة البريطانية ثلثمائة وخمسين مليوناً من الجنيهات عند بدء الحرب العالمية الثانية !!

هذه بعض النقاط التي ذكرها محدثي الهندي الكبير ، وقد تكون صحيحة ودقيقة ، وقد يكون فيها كثير من المبالغة ، ولكني سرديتها كما سمعتها منه .

ومما لا شك فيه أن الاستعمار قد أصاب الهند بجراح بالغة ، لا يتحقق علاجها إلا بالاستقلال . والهند جديرة بالحرية ، فقد تأملت كثيراً واستغلت طويلاً ، ومع ذلك قامت في الحرب بدور مجيد كان عاملاً أساسياً في اكتساب النصر ، ورجحان كفة الحلفاء .

ولقد قاسى الهنود من أجل هذا الدور مالم يقاسه شعب آخر ، فقد جند منهم مليونان ونصف مليون مقاتل من خيرة الرجال وزهرة الشباب ، فكسبوا النصر بدمائهم ، وأتوا من ضروب الشجاعة ما عجز عنه غيرهم ، بدليل أنه في معركة بورما استحق الهنود سبعة عشر وساماً من صليب فيكتوريا ، وهو أعظم أوسمة

البطولة والبسالة ، مع أن الذي وزع منها في هذه المعركة عشرون
وساما فقط !

ولم تقتصر التضحيات على الأرواح ، بل تعدتها إلى النواحي
الاقتصادية والحوية ؛ ففي بدء معركة شمل أفريقيا اشتدت
حاجة الحلفاء إلى القضبان الحديدية ، فخلعوا من أراضي الهند
ما يزيد طوله على ألين ومائتي ميل ، مع شدة احتياج البلاد
إليه ، بل إلى أضعاف أضعافه . وكانت النتيجة أن شلت حركة
النقل للمدنيين ، ففاض الطعام وتعفن في بعض المقطعات ، وقد
مات ملايين الناس جوعا في مقطعات أخرى ؛ وحادث مجاعة
البنغال مازال ماثلا في الأذهان !

ومن أجل الصناعات الحربية جندت الهند جميع مصانعها
حتى ما يقوم منها في أصغر القرى والساكنات ؛ فموت الجيوش
بالمعدات والآلات والأنسجة والذخائر ، وأرسلت ملايين
الأطنان منها عبر البحار ؛ فمن الأنسجة القطنية مثلا أخذت
الولايات المتحدة في عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ ما يقرب طوله من
سبعين ألف ميل !! وأخذت الصين أحد عشر ألف ميل ؛
هذا إلى مئات الآلاف التي أخذتها الدول المتحالفة الأخرى .

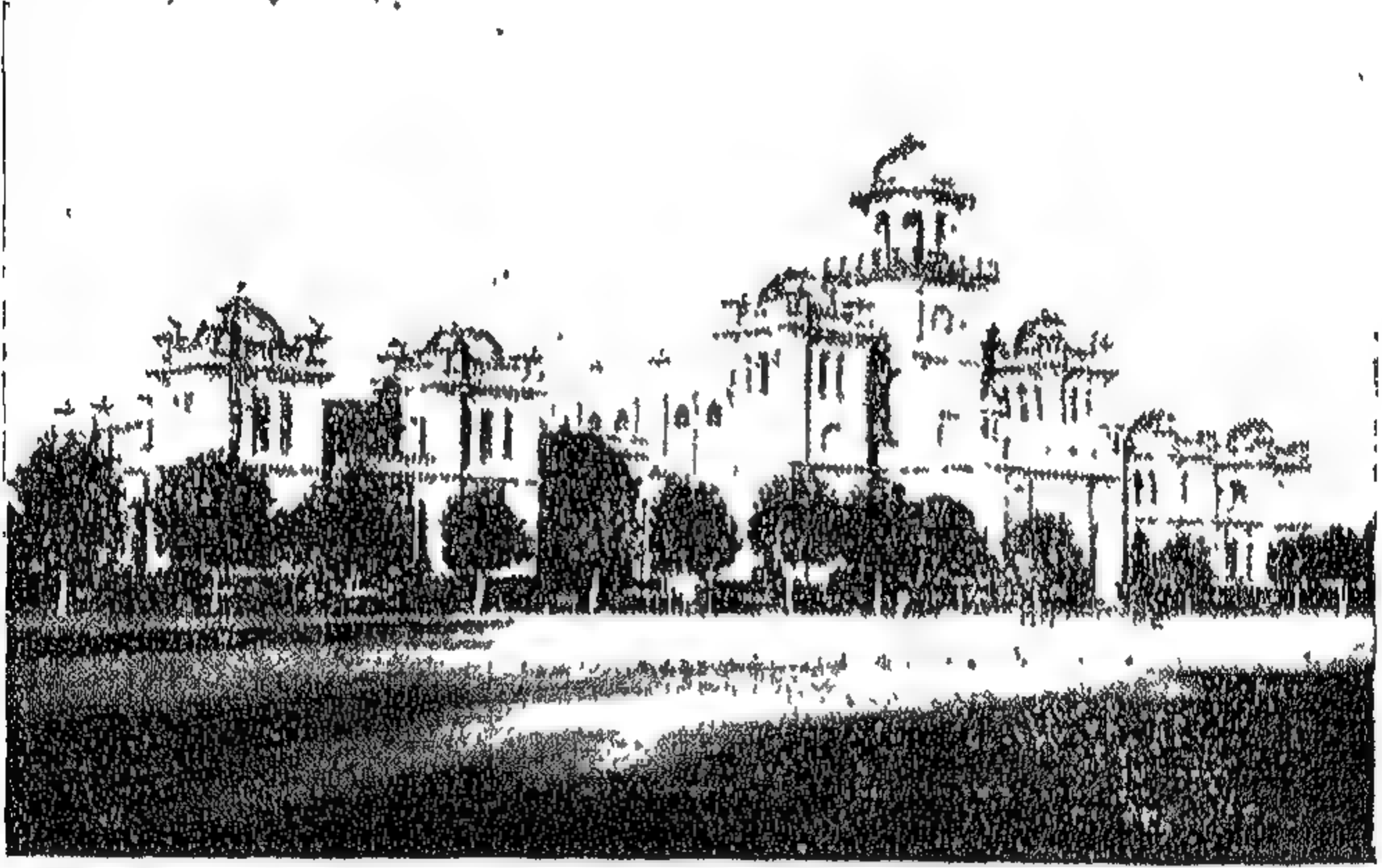
وقامت المصانع الهندية بصنع أربعة ملايين ونصف مليون مظلة من مظلات الهبوط . وأربعمائة مليون قطعة رداء عسكري خاكية اللون ، وملايين الثياب الخضراء المستعملة في حرب الغابات وخمسين مليوناً من الأحذية ، وكل هذه الأشياء من أقطان الهند وأصوافها وحريرها وجلودها .

وتناقص الكساء بين المدنيين بطبيعة الحال ، وخلت أسواقهم منه ، فانتحر بعض النساء عندما عجزن عن إيجاد ما يغطي أجسادهن .

ولقد كانت الهند خلال الحرب العالمية الثانية قاعدة حربية هامة ، فأرسلت إليها قوات لاعداد لها من أمريكا وانجلترا وكندا وجنوب أفريقيا وأستراليا والصين ، فاضطرت الحكومة الهندية لأن تبني مساكن لهؤلاء النزلاء تسع مليوناً وربع مليون جندي ، وأقامت مخازن على أرض مساحتها إثنتان وأربعون مليون قدم مربعة ، ومائتي حقل للطيران ، ومائة وثلاثين مستشفى كبيراً . وعمت بسبب ذلك أزمة المساكن ، واستحال بناء جديد منها ، لعدم توافر مواد البناء ، وأصبح المؤلف أن نرى هناك أسراً طيبة تعيش في الخيام ! .

والاستقلال هو مكافأة الهند الوحيدة ، التي يجب أن تنالها
مقابل جهدها الجبار ، وتضحياتها الكبيرة ، ودورها المجيد طيلة
سنوات الحرب والقتال .

ولا شك أن الشعب الهندي مجيد نبيل ، له من الصفات



جامعة بشاور الإسلامية

العظيمة ما يميزه ، وما يكفل له مستقبلاً فريداً . أما عيوبه
فنتيجة الاستعمار والجهل ، وانتشار الأمية بين الناس ، وعندما
يسود التعليم وتضمحل تلك الأمية ، ستداوى الهند جراحها

بيدها ، وترتق التمزقات الكثيرة المنتشرة في ثوب مجتمعتها ،
وإذ ذاك سيكون لها شأن كبير .

ونحن إذ نتكلم عن الأمية في الهند ، فما ذلك إلا لأن الجهل
يسود ثلاثة وتسعين في المائة من أفراد الشعب ، والمتعلمون
سبعة في المائة فقط ، وهو عدد عظيم وإن قلت نسبته ، فالمتعليمون
هناك ثلاثون مليوناً ، أى ضعف الشعب المصرى بأكمله .

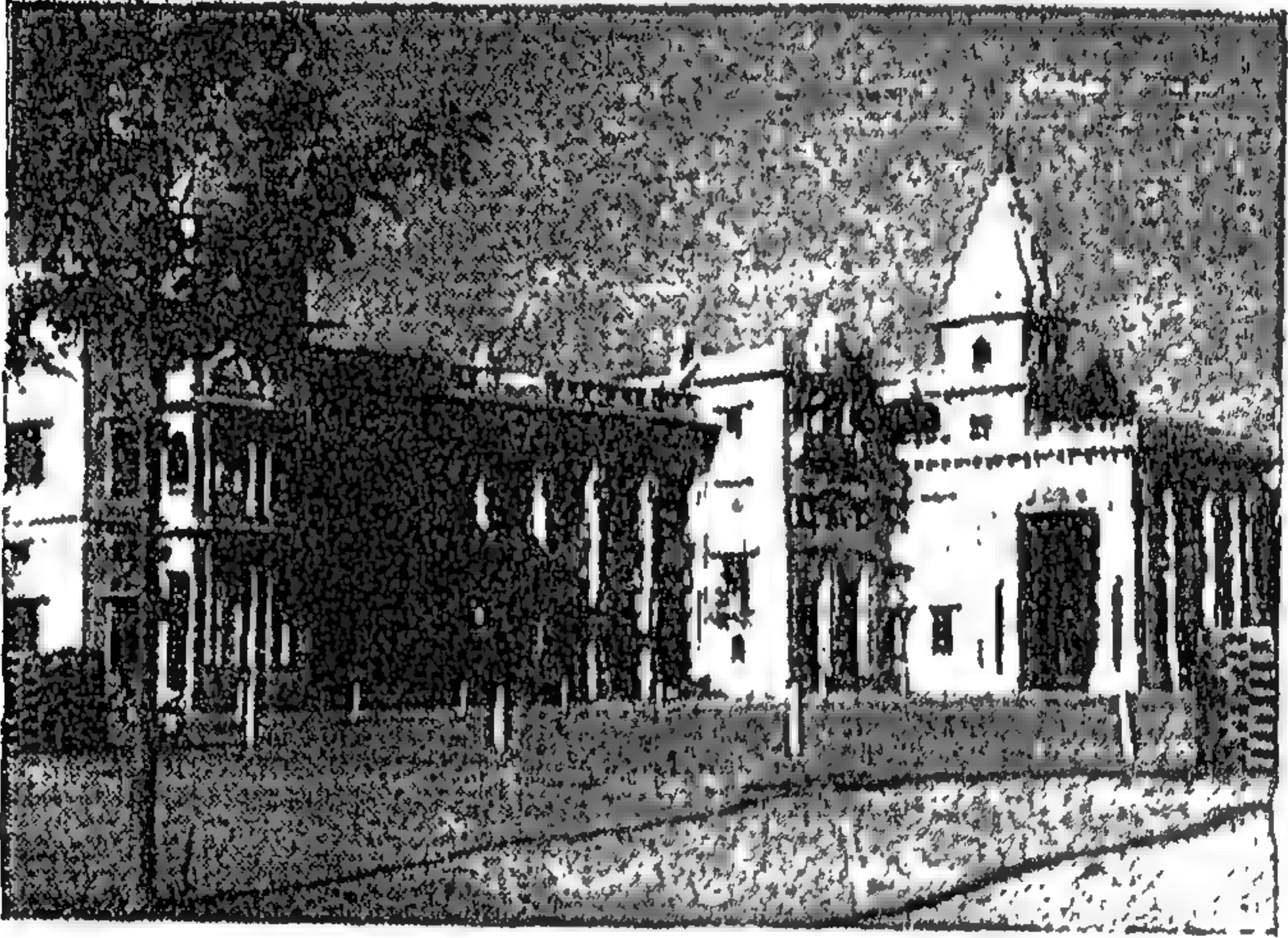
وفي الهند جامعات ومدارس كثيرة ؛ فهناك من هذه المعاهد
سبع وعشرون ألفاً وخمسمائة ، لمختلف أطوار التعليم ودرجاته ،
منها ألفان وستمائة مدرسة ثانوية ، وعشرون ألفاً ابتدائية ؛
وثمانية وتسعون معهداً صناعياً وفنياً .

وفي الهند سبع وعشرون جامعة ، بلغ بعضها من الرقي
والتوسع ما يضعها في مصاف خير الجامعات الأوروبية ؛
كجامعات بومباي ، وكلكتا ، ومدراس ، وميسورى ، وناجپور
وڤاتنا ، وڤنڤاب ، والله آباد ، وبنارس ، ثم جامعة آجرا
الإسلامية الشهيرة .

وتقع كل من هذه الجامعات في وسط مقاطعة هامة بحيث

يسهل على الناس أن يقبلوا عليها من جميع أنحاء الهند ،
فیرتشفوا فیها مناهل العلم العذبة .

وهذه المعاهد على كثرتها وتمدها قطرة في بحر زاخر فأهل
الهند أربعمائة مليون ، ومثل هذا العدد يحتاج إلى عشرات أمثال
عدد المدارس الموجودة في الوقت الحاضر .



جامعة بنارس الهندوسية

ولقد تبين الهنود — بفضل يقظتهم الحاضرة — مدى
ضرورة العلم لتقدمهم، وإصلاح عيوبهم الاجتماعية حتى الطائفية

منها ، ولذلك يعملون على نشر المدارس ومضاعفتها في أسرع وقت ممكن .

٧

لا أظن أنني شاهدت مدينة خلفت في نفسى أثراً بليغاً مثل
دهلى عاصمة الهند ، وسيدة المدن ، وقبلة السائحين الذين يتوافدون
عليها من أجل مشاهدة آثارها ، ودراسة معالم تاريخها .
وتعتبر دهلى من أقدم مدن العالم ، فقد شيدت قبل روما ،
وعرفت قبل عهد الإسكندر ، وظلت منذ ذلك الوقت محتفظة
بجمالها ورونقها ، فلم تنل الدهور المتعاقبة شيئاً من عزتها وجبروتها ،
ولم تهز الأحداث التاريخية مكائنها ، فقد كانت دهلى أقوى
من التاريخ ، فوقفت غير عابئة به مهما تقلبت أطواره وتباينت
صفحاته .

ولا أظن أن أحداث المستقبل ، مهما عظمت ، ستؤثر على
تلك المدينة ، أو تحنى رأسها ، فتكسر شوكتها ، فقوة دهلى
لا تكمن فقط في مبانيها الجميلة وآثارها الرائعة ؛ بل إن تلك
القوة تنبعث أيضاً من موقعها الفريد ، فهي تمتد من الجنوب إلى

الشمال ، فتقع في مهب الرياح الجبلية الطيبة التي تخفف كثيراً من وطأة صيفها الهندي القاتظ ؛ فضلاً عن أنها تقوم عند مفترق الطرق الهندية الهامة ، بحيث تستطيع أن تطل من برجها الشامخ على أنحاء البلاد المختلفة ، فتملك ناصيتها .

وتقع دلهي عند نهاية ممر كبير ، يجري من الشمال الغربي ماراً بوديان نهر السند ، بين سلسلة جبال الهملايا ، وصحراء راجبوتانا . ويتسع هذا الممر عند وادي چومنا ، فيصبح سهلاً كبيراً ، يتجه نحو الشرق ، ويمتد من الهند الوسطى إلى الجنوب ، فلا يعوقه عائق ، حتى خليج البنغال . وبفضل هذا الموقع الفريد غدت العاصمة مركزاً هاماً تلتقي عنده الطرق الحديدية الرئيسية ، وتنتشر منه التجارة ، إلى أنحاء العالم الخارجي .

ولقد قامت في الماضي محاولات عدة لحو سلطان دلهي ، وإضعاف قوتها ، بإنشاء عواصم أخرى في مناطق قريبة ، فباءت المحاولات بالفشل ، وهبت عوامل الطبيعة تحمي مجدها القديم ، فانتصرت العاصمة التاريخية بعد صراع قصير .

ولا يحسب أن تعتبر دلهي مدينة واحدة ؛ فهي سبع مدن مندمجة متصلة ، لبعضها تاريخ مجيد ، وبعضها الآخر ذكريات

محزنة ، ما زالت ماثلة للأذهان بفصل الآثار القائمة : فقد أقام
مدنها السبع ملوك وأباطرة متعاقبون ، شاءت التقاليد أن يشيد
كل منهم مدينة حديثة تعرف باسمه ، وتخلده على مر الزمن ؛
وعند ما يتم بناء تلك المدينة ، تقام الاحتفالات الرائعة ، والأفراح
الكبيرة ، ويشترك الشعب فيها ، فيشبع المحكوم غرور حاكمه ،
ويشعره بما أتى من عمل مجيد .

ولا نستطيع أن نتكلم عن دلهى الحاضرة ، دون أن نذكر
دلهى الماضية ، فحاضر المدينة وماضيها مند مجان بحيث لا يمكن
التفرقة بينهما . وفي كل ركن منها يقوم أثر خالد ، يربط القديم
بالجديد ، ويعيد إلى الذهن صفحات مجد تخللتها المآسى
والأحزان .

وقد لا يمكن العودة بتاريخ المدينة إلى بدايته ، لأنها أقدم
عهداً من أن يستطيع المؤرخ دراسة تلك الحقبة من الزمن ؛
ولسكننا نعرف أنها كانت منذ عام ٣٨٠ ميلادية مدينة هندوسية
صغيرة ، تعاقب على عرشها حكام هندوس ، منهم الامبراطور
« تشاندرا چويتا » الذى ما زال اسمه منقوشاً على عامود
حديدي تاريخي .

وظل الهندوس سادة المدينة حتى عهد « پريتقى راج » الذى اشتهر بقوته وشجاعته ، فكتبت أعجب الأساطير عن غزواته وفتوحاته ، ثم قلبت الأقدار له ظهر المجن ، فقتل فى معركة الأخيرة أمام محمد الغورى عام ١١٩١ ميلادية ، وبموته سقطت المدينة فى يد المسلمين ، فدخلوها منتصرين ظافرين ، وغدت منذ ذلك العهد عاصمة الهند الإسلامية .

وارتقت دلهى بفضل محمد الغورى ، وقفزت فجأة من مدينة صغيرة إلى عاصمة امبراطورية كبيرة ، تتوالى فيها العهود الإسلامية . وزال عنها شر المغول الذين أقلقوا بلاد الهند طويلاً وأنزلوا بأهلها ألوان الشر والتعذيب ، فساد الأمن وعم الرخاء ؛ ولكن الحروب المتوالية ، والإصلاحات الضئيلة ، أنهكت محمد الغورى ، فاعتكف بعيداً ، وترك الحكم بين يدي قائده « قطب الدين أيبك » ، مما أطمع القائد فى السلطان ، فأعلن استقلاله التام عام ١٢٠٦ م .

وتاريخ قطب الدين حافل بالجد ، فقد دعم الأمن والاستقرار ، وحوى الهندوس شر المغول بجيوشه القوية ، وعلى الرغم من توالى الحروب والمعارك ، وجد فسحة من الوقت يقوم فى خلالها

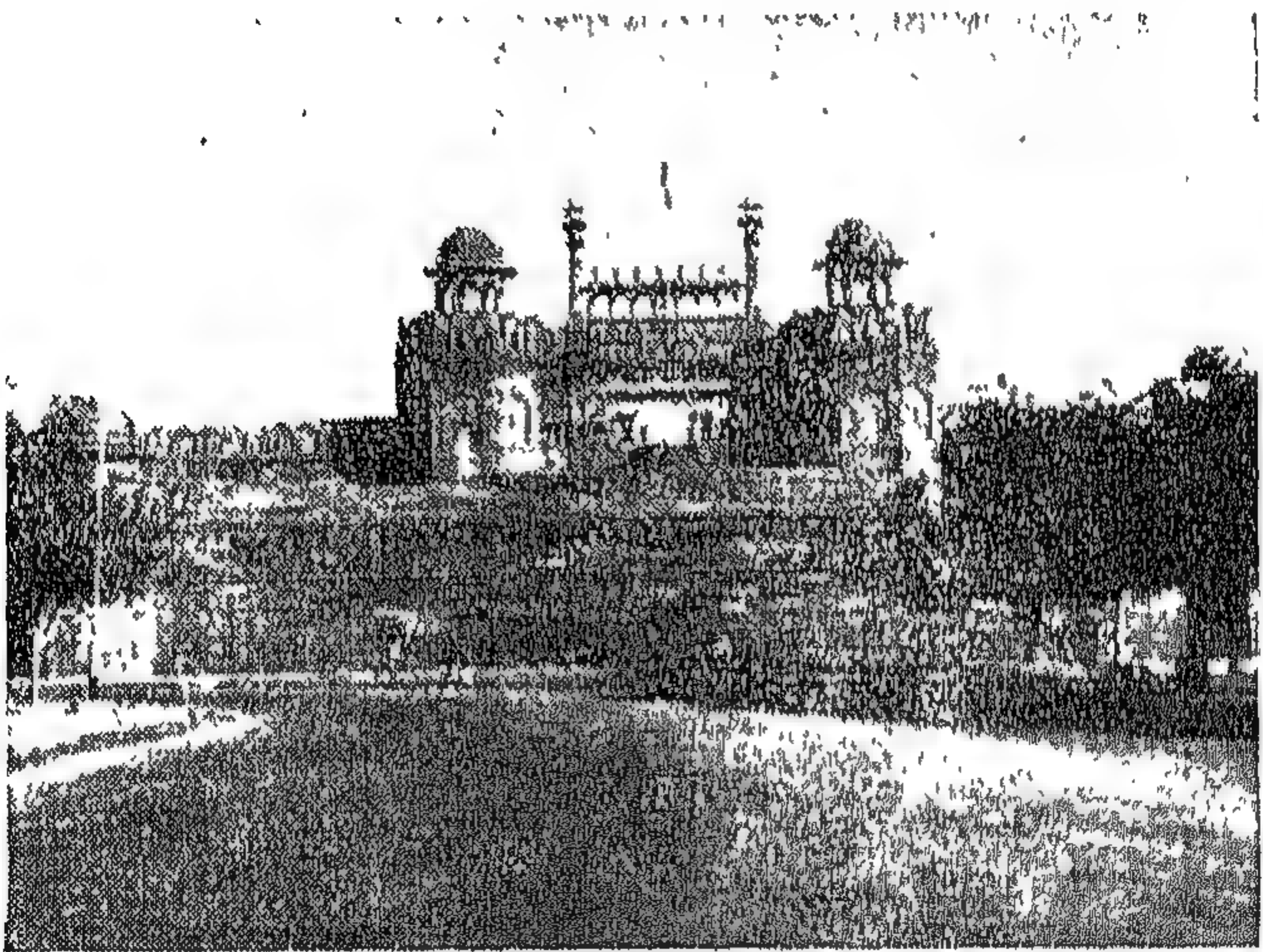
بإصلاحات داخلية ، كان لها أثر كبير في رقي البلاد سياسة وإجتماعاً ، وسار على نهج من سبقوه فبنى حياً جديداً عند طرف المدينة يعرف الآن بمدينة « قطب » ، وجعل منه قلعة حصينة تطل على الطريق .

وأراد أن يتوج مدينته بجامع جديد ، فأمر بهدم معابد الهندوس ، فهدم منها سبعة وعشرون ، وبنى جامع « قوة الإسلام » بأعمدتها وأحجارها ؛ وبذلك أغضب الهندوس بعد رضا ، وأوغر صدورهم ، فخذوا عليه ، وعلى أتباعه المسلمين ، فنشأت المشكلة الطائفية بين المسلمين والهندوس ، ومنذ ذلك الحين إلى يومنا هذا بقيت مشكلة الهند الأولى !

وكانت دلهي بعد ذلك مسرحاً لظاهرة اجتماعية نبيلة ، تثبت ذكاء بعض حكام الهند المسلمين ، وسبقهم في ميدان التقدم والتجديد ، فقد خلف قطب الدين ملك اسمه « الطمش » ، لم يعجبه ضعف أولاده وتخاذلهم ، فأورث عرشه ابنته المحبوبة « راضية » ، فكانت المرأة الوحيدة التي ارتقت العرش ، وحكمت الشعب منذ بدأ تاريخ الهند إلى الآن .

وحققت الملكة راضية آمال أبيها ، وأثبتت بتصرفاتها

الحكمة قوة كبيرة ، ونظراً بعيداً ، وسلامة في المنطق والسياسة ؛
ولكنها ماتت بعد سنوات ثلاث ، والبلاد مليئة بالفتن
والثورات ، لأن راضية لم تتمكن - بالرغم من جبروتها - من
تغيير عقيدة الرجال في حكم النساء !



قلعة دلهي بناها الأمبراطور شاه جهان

وتوالى بعدها ملوك ، ونازع بعضهم بعضاً العرش ، فانتشرت
الفوضى ، واختل الأمن ، حتى استقر الحكم في يد « غياث الدين

توجلاك» فأعاد النظام ، ونشر الرخاء ، وأمن البلاد من المغول الذين تحركوا بفضل هذه الفوضى ، وارتفعت رؤوسهم من جديد .

وأراد تسجيل مجده بمدينة أخرى ، فشيّد حياً جديداً في دلهي ، « أسماء توجلاك أباد » ما زالت خرائبه قائمة ، تردد أسطورة عجيبة يتداولها الناس عن السبب في موت المدينة الحديثة ، وهي ما تزال في المهد . تقول الأسطورة : إنه كان في دلهي إذ ذاك شيخ طيب اسمه « نظام الدين » ، أراد أن يبني لنفسه صومعة فمنعه الملك وطرده ، فغضب الشيخ ولعن المدينة الجديدة ، ودعا عليها بالخراب . وحدث بعد ذلك مباشرة أن هجر الناس « توجلاك أباد » فجأة فخلت إلا من الوحوش والضواري ؛ فلما سمع الملك بذلك ، خرج على رأس جيش كبير ، لتأديب الشيخ ؛ وأقيمت الزينات وأقواس النصر في طريقه ، فسقط قوس منها على رأس الملك ، فقتل لساعته ؛ مما ضاعف إيمان الناس بقوة نظام الدين وسطوته .

وقد يرجع السبب في هجر المدينة إلى غير لعنة الشيخ ، ولكن المصادفات ساعدت على رواج القصة ، فرجفت قلوب

الناس هلعاً من اللعنة ، وكتب على توجلاك أباد أن تظل إلى الأبد مأوى للقردة وبنات آوى والذئاب !

وتعاقب الملوك على عرش دلهى ، وقام كل منهم بما استطاع من أعمال يتوجهاً أبداً حتى جديد . وكان بعض الملوك خشناً ، فخلّف خشونة في آثاره ، وكان البعض الآخر رقيقاً فناناً ، فسجل في البناء والتعمير تجديدات رائعة . وكان بعضهم متسامحاً ، فعاش الهندوس في ظله آمنين ، وكان البعض قاسياً متعصباً ، فاضطهد هذه الفئة وأذلها كثيراً .

وفي عهد محمد توجلاك — ثالث حاكم بعد غياث الدين — نزلت بدلهى ضربة قاضية ، حطمت عظمتهى ، ونالت من مكائنها وتركبتها تتقلب في ألوان الشقاء ردحا غير قصير من الزمن ؛ فقد اشتد ساعد المغول من جديد ، إثر انحلال العرش في العهود الأخيرة ، وما نتج عنه من ثورات وضعف . وتحركت أطماع المغيرين ، فقام تيمور الأعرج ليستعيد مجد المغول ، واسترد بغاراته المروعة معظم أراضيهم القديمة ، فلما اكتملت قوته هجم على شمال الهند بجنده الأشداء .

وكانت دلهى قبلته فسار إليها وهو يصحب مائة ألف أسير

هندوسى ، فلما وصل إلى ضواحي المدينة ، فوجىء بجيش
يقوده « مالوخان » ، فأثار الجيش وحشية تيمور ، فقتل جميع
الأسرى خشية أن يهبوا لمساعدة مواطنيهم !!

ولم يثبت « مالوخان » طويلاً أمام المغير ، فسقطت دلهى فى
يد المغول ، واجتاحت جيوشهم الشوارع والقصور ، فتركها
خرائب وأطلالا . واشتبك الأهالى مع الجنود ، وقام بين
الفریقین عراق انتهى بأفطع مذبحه يذكرها التاريخ . ولم يبق
تيمور بدلهى أكثر من أسبوعين ، وغادرها متجهاً نحو نهر
جومنا ، وعاد إلى بلاده عن هذا الطريق ؛ فلم يكن المغول أهل
استعمار دائم ، بل كانوا أشبه بعصابات تسعى وراء الثروة
والسكنوز ، وتعود بها من حيث أتت .

وتركت غارة تيمور فى دلهى أثراً لا تنسى ، فعلى الرغم من
بقاء العرش ، ذهبت هيئته ، وأصبح عرشاً مزلزلاً خاوياً : تحيط
به الفاقة ، ويخيمه العوز ، وتتردد فى جنباته آهات الأهالى ،
وقد كاد يهلكهم الجوع والفقر . وبقى الملك « محمد توجلاك »
على العرش يأتمر بأمر تيمور ، ويرتجف جزعاً لذكرى هذا
الأعرج ، فيدفعه الجزع إلى تنفيذ أوامر المغير ، وتلبية رغباته .

وعلى جدران المسجد الذى بنى عام ١٤٠٤ نجد وصفاً محزناً ،
للشقاء الذى نتج عن غارة المغول ، وللتعس الذى خافه تيهور
وراءه . وبموت « محمد توجلاك » عام ١٤١٤ تخطى حياة كلها
شقاء ، ويتهى عهد الأسرة التوجلاكية ، التى حكمت دلهى
أجيالاً متعاقبة ، ويليهها حكم المغول بما فيه من فضائل ونقائص .
ولم تترك عهود المغول الأولى غير خرائب نراها اليوم فى دلهى ،
حتى تولى العرش الامبراطور العظيم « أكبر » فاستهل حكمه
بمحاربة الهندوس الذين قويت شوكتهم ، فاستقلوا بدلهى ،
وانصبوا عليها واحداً منهم ، فهزمهم شر هزيمة ، وأعاد سلطان
المسلمين على المدينة .

ولا شك أن « أكبر » أعظم باطرة الهند قوة وجبروتا
وصلاحاً ، ولكنه كان متقلب المزاج ، نارى الغضب ، فإذا
ثارت ثورته ، أتى أهول الأعمال وأقساها . ويذكر تاريخ الهند
قصصاً كثيرة عن غضبات هذا الماهل ، منها أنه كان لأ أكبر
مرضع أفرط فى حبها ، فغدت وابنها « أدهم خان » صاحبى السلطة
والقوة فى البلاد . واستلان لها « أكبر » عن طيب خاطر ،

فنفذ سياستهما ، وعمل بمشورتها ، مما حرمه الاستقلال في الحكم والرأى .

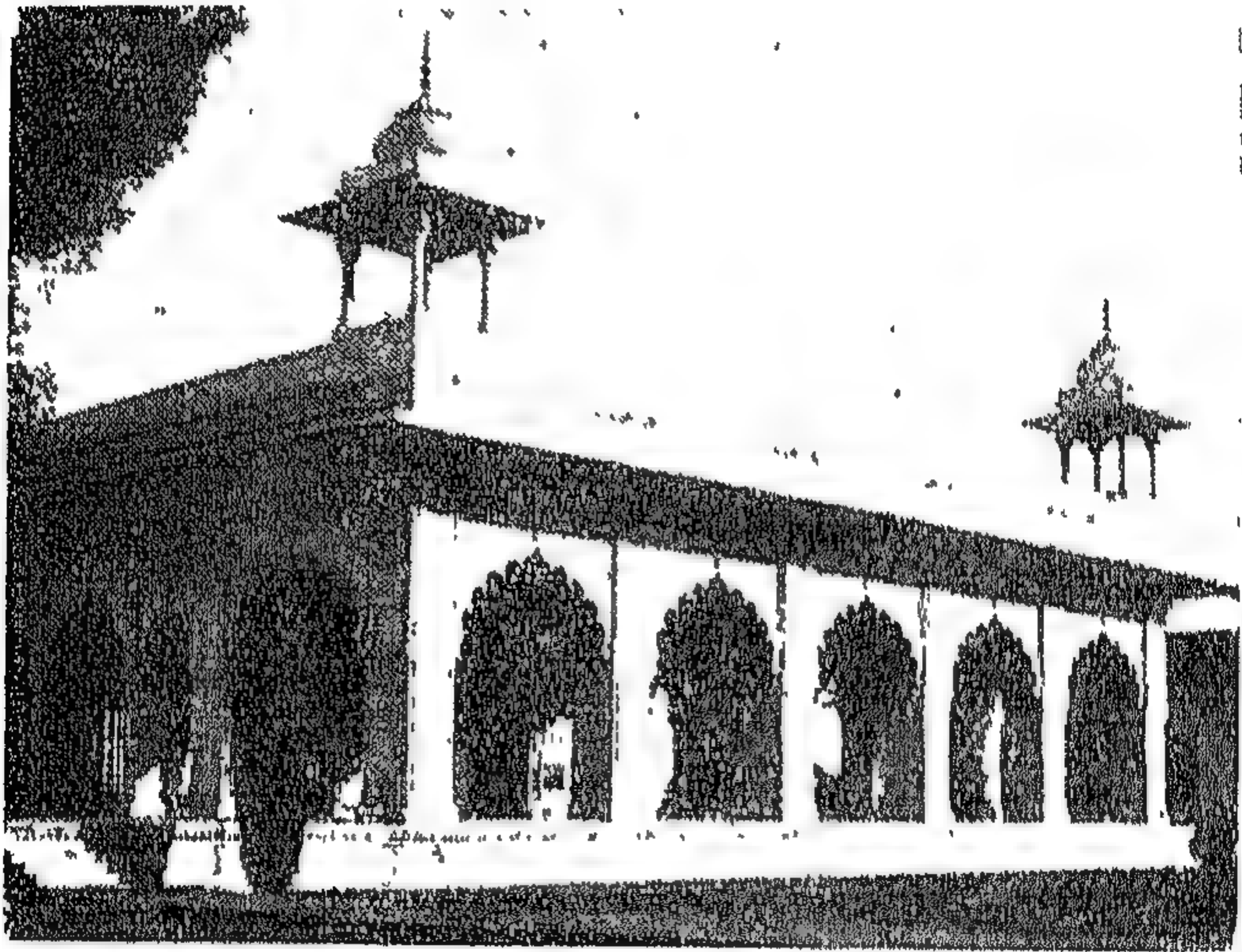
وحدث ذات يوم أن قامت مشادة بين « أدهم خان » وأحد الأمراء ، وانتهت المشادة بأن قتل « أدهم » الأمير في بهو من أبهاء القصر ، ثم خشى أن تصل القصة مشوهة إلى الإمبراطور ، فأسرع إلى مقابلته ، واقتحم حجرتة ، وما زال سلاحه في يده ، لطلب العفو والمغفرة من صديقه وأخيه في الرضاعة .

وفوجيء « أكبر » بابن الموضع أمامه بسلاحه فانقلب مزاجه ، وتأججت نيران غضبه ، فلم ينتظر حديثاً أو إيضاحاً ، وهجم على « أدهم » وحمله بين ذراعيه ، وألقاه من النافذة ، فسقط فوق أسوار القصر قتيلاً مهشماً !

وعند ما زایل الغضب تبين أن الموضع ان تغفر له قتل ابنها الوحيد ، فأقصاها عن القصر ، وأبعدها عن المدينة ؛ واستقل بالحكم والرأى ، ولم يعد هناك من يوحى إليه أو يوجهه .

واستعادت دلهى مجدها ثانية ، فغدت كما كانت قديماً سيدة المدن ، وتاجها الرفيع ، ولكن محنة أخرى نزلت بها ، ففي يوم من عام ١٥٦٤ كان الإمبراطور « أكبر » يمتطى صهوة حصانه

في طريقه إلى قصره بعد جولة خاصة ، فقام أحدهم بمحاولة
 للاعتداء على حياته ، فتضايق الإمبراطور ، وقرر أن يؤدب
 أهل دلهي جميعا ، فأمر بنقل عاصمة ملكه إلى مدينة «آجرا» ،
 وبذلك قضى على تجارة البلدة ، التي كانت تقوم على التعامل



ديوان ايقاس
 أو قاعة الاجتماعات الخاصة بقصر شاه جهان

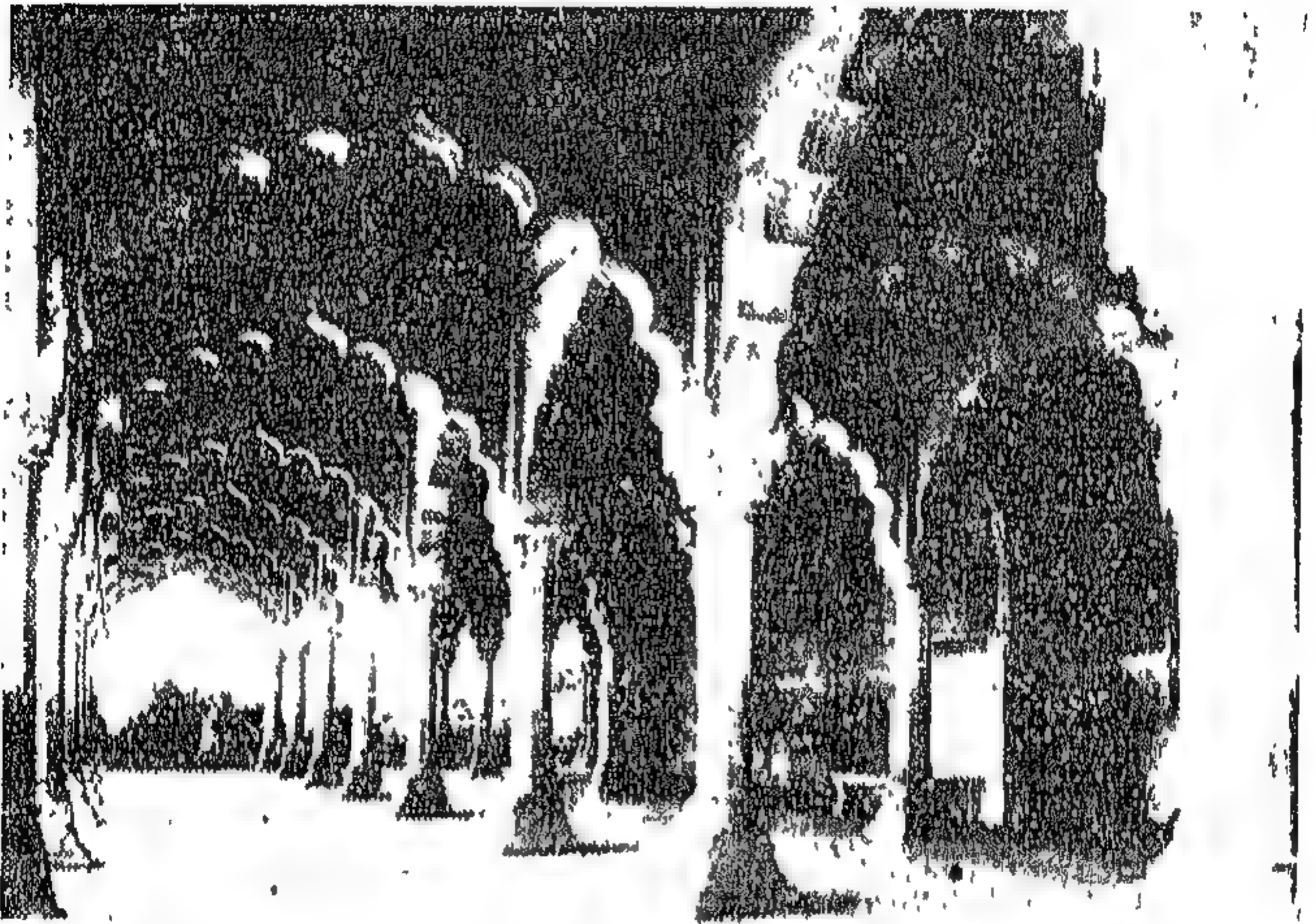
مع البلاط والأمراء والحكام ؛ وقاست دلهي أزمة اقتصادية
 شديدة ، أنزلتها مرة أخرى إلى مدينة ثانوية لا حول لها ولا قوة.

وانتمشت « آجرا » على أطلال محنه دلهى ؛ وظلت معقل الأباطرة بعد عهد « أكبر » ، وبلغت أوج عزها ورفاهيتها فى عهد « شاه جهان » الذى أغرم بالجمال فى المباني والمنشآت ، مما جعل تلك المدينة جنة وارفة الظلال .

ولشاه جهان قصة خلده إلى اليوم ، فقد كان له زوجة اسمها « ممتاز » ، اشتهرت بجمالها الرائع وحسنها الفريد ، فتدله الإمبراطور فى حبها ، وفضلها على نساءه الأخريات . وماتت ممتاز فى أوج شبابها ، فحزن زوجها عليها ، وشيد لها مقبرة « تاج محل » بمدينة آجرا ، وتعتبر هذه المقبرة أعظم قصور الدنيا ، فقد بنيت جدرانها بأثمن أنواع المرمر ، وزينت بالذهب الخالص ، ورصعت بالماسات والآلىء النادرة ؛ وهو عمل جديد فى البناء لم يعرف من قبل أو من بعد . ويقال إن منظر القصر فى ضوء القمر قد ذهب بلب بعض الأوروبيين ، فاختبلت عقولهم أمام جماله الساحر .

وكما ارتفعت آجرا فى أيام شاه جهان ، قدر عليها أن تموت فى عهده أيضاً ، فقد أراد الإمبراطور أن ينشئ شوارع واسعة فى الحى التجارى ، ولكن التجار رفضوا الخضوع لإرادته ،

وأبوا تخريب حوانيتهم بتلك الطرقات الواسعة ، وبذلك صبوا
الخراب على رؤوسهم ؛ فقد عاد بالعاصمة إلى دلهي ، ليلقى على
العصاة درساً لا ينسى ، فدبت الحياة في سيدة المدن ، وماتت



ديوان إيام أوقاعة الاجتماعات العامة بقصر شاه جهان

غريمتها بعد بوار تجارتها ، ودمار تجارها الجشعين !
و بنى شاه جهان حياً في مقره الجديد ، وأقام « جهان آباد »
عند أطراف دلهي ، وتوجها بقصر منيف ، وجامع فسيح ،

وقاعة كبيرة للحفلات ، فبذت بجمالها وفخامتها ما سبق أن بناه
الآباطرة السابقون . وظلت إلى اليوم صبية وفتية ، وقد هرمت
مدن دلهي الأخرى ، وتداعت جدرانها ، وأمست خرائب
وأطلالا .

ولا شك أن دلهي أفادت كثيراً خلال عهد شاه جهان ،
وسمت إلى مكانة لم تصل إليها من قبل ، فانتقلت إلى أوروبا
شهرة ثرائها وجمالها ، واسترعت أنظار الكتاب والأدباء هناك ،
فكتبوا الكثير عنها ، مما دفع تجار الغرب إلى زيارتها ، فباعوا
تحتهم لبلاطها ، وعادوا بأضعافها إلى بلادهم .

ولكن الثراء يورث الطمع ، فعند ما اشتد المرض
بالإمبراطور تنازع أولاده الملك ، وعمل كل منهم على استلابه
دون الآخرين ، وتوج ابنه « أورنجزيب » نفسه على شمال
المدينة ، واعتقل والده ، ونقله إلى آجرا ، ويقال إنه سجنه حتى
موته في غرفة صغيرة تطل من بعيد على « تاج محل » ، ليرى في كل
لحظة رمز مجده ، ويوازن بينه وبين تعسه وشقارته !

وبعد وفاة شاه جهان خرج أورنجزيب يبحث عن أخيه
« دارا » ليقتله ، ويريمه من طريقه ، فظفر به أخيراً . وتقول كتب

التاريخ إن الأنخ القاسى وضع «دارا» على حصان وقد أتجه وجهه إلى الذيل ، ليكون هذا دليل الذلة والمهانة ، وأمر أن يطوف هكذا في جميع أنحاء المدينة ، ثم قتله بعد الطواف شر قتلة ، فبكى الناس أميرهم المحبوب ، وحزنوا عليه عهداً طويلاً .

وحكم أورنجزيب بلاد الهند حتى بلغ الواحدة والتسعين من عمره ، فكان مصدر الرعب والفرع ، ورمز الوحشية المنقطعة النظير ، حتى عاش ابنه « باهور شاه » أربعين عاماً وهو يرتجف لجرد رؤية اسم أبيه مخطوطاً على الورق !

وظلت دلهى معقل الأباطرة حتى أفل نجم المغول ، وغربت شمس إمبراطوريتهم ، فزالت بزواهم صفحة هندية ، مليئة بالمجد والشر : فقد كان حكم المغول على عظمتهم ومظاهر عمرانهم ، حاشداً بالمؤامرات والديساسيس والتقتيل ، ففسدت أخلاق الشعب ، وارتفعت رؤوس المشاغبيين ، وتوالى الثورات والمذابح ، وتسلسل إلى البلاد خطر داهم ، يتمثل في شركة تجارية انجليزية هي « شركة الهند الشرقية » !!!

وتوطدت دعائم الشركة فوق أطلال المساد والانحلال ، وتأصلت جذورها مع عهود الثورات المتوالية ، وبلغت قوة

لا يستهان بها أيام الإمبراطور « علم شاه » ، فلما أحس جنود المهراتا — حرس الإمبراطور — بالخطر المقبل ، نظموا الجيوش لمحاربة الإنجليز ، وهجموا على قوات لورد ليك ، فردهم على أعقابهم ، واحتل دلهي ، فذهب استقلال الهند إلى الأبد !

ولم يرض المهراتا بالهزيمة ، فأعادوا تنظيم جيوشهم ، وحاصروا دلهي بعد عام ، ولكنهم خذلوا ثانية أمام الإنجليز ، واضطروا إلى رفع الحصار بعد أسبوعين . وتلا رفع الحصار ثورة داخلية قام بها المسلمون لطرد المستعمرين ، واستعادة مجدهم في الهند ، ففشلت الثورة ، وأتت بعكس النتيجة المرجوة ، إذ عقد الإنجليز عزمهم على إخماد أنفاس تلك الفئة المشاغبة ، فصادروا أملاك المسلمين ، وقتلوا خيرة رجالهم ، وطرדوا الباقين من المدينة ، وشردوا النساء والأطفال ، وهدموا المساجد الصغيرة ، وأسكنوا جنودهم في الكبيرة منها ، حيث لا تزال آثار نيران مطابخهم باقية على جدرانها إلى الآن !

ورحب الهندوس بالمستعمر الجديد ، ووجدوا فيه منجداً لهم من أعدائهم الأولين ، فاستجاب الإنجليز لشعورهم ، واحتضنوهم

وخصوصهم بالمراكز والوظائف العالية وغير العالية ، فدالت دولة
المسامين في الهند !!!

هذا هو مجمل تاريخ مدينة دلهي ، وفيه نقرأ قصة بلاد الهند
كلها ، بأحداثها السياسية والطائفية ، فدلهي كما قلت سابقا هي
الهند ، والهند دلهي ، ومن المستحيل الفصل بين الاثنين ، ففي
جوها يختلط القديم بالحديث ، وعلى مسرحها يمتزج الماضي
بالحاضر ، مما يضفي عليها سحراً عجيباً .

وعلى مقربة من دلهي القديمة أنشأ الإنجليز عام ١٩٣٠
مدينة أخرى هي دلهي الجديدة ، وفيها تتمثل روح العصر
الحديث وفنه ، فبيوتها صغيرة أنيقة ، تحيط بها مسطحات
واسعة من الحشائش الخضراء ، والأشجار الباسقة المظلة ، حتى
لتمهجز العين عن رؤية المنازل المختفية وراءها .

ويخترق المدينة طريق « كوينزواي » ، ويقوم على رأس
هذا الطريق قصر نائب الملك ، الذي زاره دوق وندسور أيام

كان ولي عهد الامبراطورية البريطانية ، فقال لفرط ما رآه من
البدخ :

— الآن عرفت كيف يعيش المرء عيشة الملوك !

وتقوم دور الحكومة في قلب دلهي الجديدة ، وتتكون
تلك الدور من بناءين ضخمين متواجهين : أحدهما « السكرتارية »
والأخرى « المجلس التشريعي » وكلاهما مبنى على الطرزين
الكلاسيكي والهندي .

وتستوعب دار الإذاعة الأنظار بجمالها ، فهي بناء مستدير به
اثنى عشرة غرفة للغناء والمحاضرات ، فرشت أرضها بالبسط الحمراء
الجميلة ، ويتوسط كل منها مذيع صغير منخفض لا يزيد ارتفاعه
على قدم ، لأن العادة المتبعة هناك أن يجلس الفنانون على
الأرض !

وبدار الإذاعة واحد وعشرون جهازا للارسال مما يجعلها من
أقوى محطات العالم ، ويمكن القائمين بها من إعداد برامج شتى
بالعربية والإنجليزية والإيرانية ولغات الهند المختلفة .

ودلهي الجديدة تعتبر عن جدارة أنظف مدن الهند فلا تعيش
بها ذبابة أو حشرة واحدة ، وذلك لأنها شيدت على أسس

علمية حديثة ، فرشت أرجاؤها من الجو بالعقاقير المطهرة . وتعد المدينة مليحاً الأمراء والأغنياء وكبار الموظفين الذين يتقاضون مرتبات ضخمة ، رفعت مستوى المعيشة ، فغدت نفقات الحياة فيها فاحشة .

وتركت الحرب العالمية الثانية على دلهى الجديدة أثراً ملحوظاً ، فالسيارات الخاصة معدومة ، ووسائل النقل ضئيلة ، ونفقات الانتقال عالية جداً ، لإهمال الحكومة تحديد سعر لها معقول . وأزمة المساكن هناك على أشدها ، فقد شغلت القوات المتحاربة كثيراً من مبانيها ، وحال الغلاء دون تشييد الجديد منها ، ولذلك أقامت حكومة الهند خياماً فى قطعة من الفضاء المتسع ، ليعيش فيها صغار الموظفين مع أسراتهم .

٨

كنت أظن أن مصر تفوق البلاد الأخرى من حيث عدد المتسولين الذين يعيشون فساداً فى مجتمعاتها ، ويتجمعون فى طرقاتها تجمع الذباب ، فيسيئون إلى سمعة بلادنا ، ويتركون فى ذهن السائح صورةً قبيحة ، تظل إلى الأبد واضحة ، حتى ليصغر أمام

وضوحها ما قد يراه ذلك السائح من صور ومصرية أخرى ، لمظاهر
عمرانية طيبة ، أو آثار تاريخية خالدة .

وكنيت وما زلت أعتقد أن آفة مصر الكبرى هؤلاء
المتسولون ، الذين ارتضوا الذلة ، ولم يقبلوا عنها بديلا ، لأنها تدر
عليهم أرباحا عظيمة ، دون جهد ، ودون مقاومة مذكرة من
الشعب والسلطات . وضاعف عددهم تهاون الحكومات
وشجعهم على المضي في طريقهم الممقوت ، فانتشروا في المدن
انتشار الجراد ، ليقتمحوا كل مكان حتى بيوت الله ،
ويضطهدوا العباد بلجاجةهم وإلحاحهم ، ويمسكوا بتلابيب الناس
فلا خلاص إلا بدفع الفدية وهي القرش !

والعجيب أن السكرة الساحقة من متسولين لا تثير رؤيتهم
رحمة أو شفقة ، فعلى وجوههم سياء الرذائل التي ينطوون عليها ،
وعلى أبدانهم الصحيحة دلائل القوة التي تمكنهم من العمل
الشريف ، واكتساب الرزق بوسائل غير التسول والاستجداء .
ولكن عدد المتسولين المصريين تضاعف في ذهني أمام
جيوش إخوانهم الهنود ، حتى خيل إلي أن مصانع التسول

الأساسية تقوم في تلك البلاد ، وما مصر إلا دولة صغيرة تستورد جزءاً يسيراً من منتجات هذه المصانع !

وتلفت هذه الظاهرة نظر الغريب هناك ، ففي كل طريق أساسى أو فرعى ، وفي كل ركن ظاهر أو خفى ، يتجمع المتسولون الهنود عشرات عشرات ، يستجدون المارة بصلوات ودعوات لانهاية لها .

ولكن المتسولين الهنود يختلفون عن زملائهم المصريين كل الاختلاف ، فدلائل البؤس الحقيقي في وجوههم الصفراء الذابلة ، وعيونهم التي أعمأها الجدرى ، وأجسادهم الضامرة النحيلة تنطق بالحرمان والجوع والعري ، مما لا يدع مجالاً للشك في أنهم يقاسون شظف العيش ، وضيق ذات اليد .

والفقر في الهند ظاهرة ملحوظة ، لا تقتصر على طائفة المتسولين فالطبقات العاملة محرومة أيضاً مما لا غنى عنه ، والقرى صور صادقة للغبين الاجتماعى الذى ينزل بأهلها .

والجوع والعري والحرمان أول مشاكل الهند الخطيرة ، فقد استفحل الشر في هذه الناحية ، وتهدد حياة مئات الملايين ، وفي العام الماضى ذهبت مجاعة البنغال بمليين من الأنفس . وقد

يكون من المستحيل أن نصف للقرى ما حدث في هذه المجاعة من فظائع ، ولذلك سأكتفي بنقل نبذة قليلة من مقال كتبه چون فردريك ميهل — أحد الجنود الذين اشتركوا في مكافحة مجاعة البنغال — وقد ترجم هذا المقال ونشر بمجلة « المختار » .

قال بعد أن وصف فنادق كلكتا الناضرة ووسائل الراحة فيها : « بيد أن كلكتا كانت كذلك بلداً يخيم عليه الجوع والموت ، فلم يك ثمة أرز أو ذرة لسكان أحيائها الوطنية الممتدة الأطراف ، أو لطائفة الشحاذين والمنبوذين الذين يذرعون الشوارع والطرقات . ولم يكن لهؤلاء جميعاً إلا الأفاريز الجرد حيث يستجدون المارة فضلة من الطعام ، ويداسكون بطونهم المنتفخة وهم يزحفون وراء أهل اليسار من الخاصة والأوروبيين . هناك على قارعة الطريق كانوا يسقطون جثثاً هامدة حتى تأتي سيارات النقل ، فتحملهم إلى أفنية حرق الموتى » .

ويقول في مكان آخر :

« إن يعرف أحدٌ أبداً كم من الناس ماتوا في مجاعة البنغال ، فقد غلا الأرز ورخصت الحياة في طول الولاية وعرضها ، ولم يكن ثمة إحصاء دقيق لعدد من أحرقوا ، فقد ترك كثير من الجثث

تبلى حيث وقعت . وقد تضاعفت كلاب كلكتا شبعاً في وليمة الموتى ، وجاست خلال الشوارع تنهش لحوم البشر وتحمل عظامهم بين أنيابها ، وكانت تهاجم الموتى الذين يسقطون ساعة يكفون عن المقاومة . ولقد رأيت غير مرة كلباً يصارع امرأة تملكها الفزع ، ليستولى على جثة زوجها .
ويقول في مكان ثالث :

« ومررنا بمحلة لإعانة الجائعين من ضحايا المجاعة ، فرأينا المشرفين عليها يوزعون غرارة من الأرز — غرارة واحدة فقط — على آلاف من الناس ، فكنت ترى الأحياء في مقدمة الحشد يتباعدون بما يقيم أودهم ، وترى الموتى يحصى عددهم في فناء في مؤخر الدار . وفي هذا المساء عندما قدمنى كروفورد إلى رئيسه سألته عن محلات إعانة المجاعة ؛ وكم نفس استطاعت هذه المحلات إنقاذها ؟ فجاء جوابه صريحاً قاطعاً : « إنك لن تستطيع أن تقف شر المجاعة ببضعة أكياس من الأرز كما تعلم ، ولكن هذه المحلات تخدم غرضين ، فان فرصة الحصول على حفنة من الأرز تجذب من الجائعين من هو أقرب إلى التضعع

والسقوط ، وحتى إذا نحن لم نستطع أن نطعمهم جميعاً ، فإن هذه المحلات تجمل من السهل جمع جثثهم^(١) »
 هذا ما حدث في مجاعة البنغال منذ عام ، أما الأخبار الحديثة فتقول : إن شيطان الفناء جوعاً ، يلوح بمنجلاه البغيض فوق رؤوس مائة مايون من الهنود .

والوسيلة الوحيدة لإنقاذ هؤلاء أن يسرع العالم الخارجي بإرسال الأغذية ، وهو مطلب متعذر ، فالعالم أجمع يتضور جوعاً ، وأزمة الغذاء في الغرب أشد منها فتكا في الشرق ، فما بالنا بالهند ، وهي تقع في نهاية المعمورة ، وتتطلب مساعدتها مئات السفن التي لا تتوافر في الوقت الحاضر !

والهند بلاد المفارقات العجيبة ، فهي أيضاً موطن الغنى الفاحش ، فبين جنباتها يعيش ملايين العراة الجياع ، كما يعيش أعظم أثرياء الدنيا ، ممن يملكون ثروات لا تعد أموالها ولا تحصى .

وثررة كثير من الأغنياء في الهند ، لا مثيل لها في أى بقعة أخرى من بقاع الأرض . ومن ذلك أن أحد الأغنياء الهنود

(١) هذه النبذ منقولة حرفياً من الترجمة العربية للمقال في مجلة المختار ١١

أقرض الحكومة البريطانية عند بدء الحرب العالمية الثانية ،
ثلاثمائة وخمسين مليوناً من الجنيهات ! ونحن نعرف أن المرء عادة
لا يقرض ثروته كلها ، بل جزء مما يستغنى عنه ، فعلى هذا القياس
يمكننا أن نتصور ثراء هذا الرجل بالتقريب .

وأذكر بهذه المناسبة أنى نزلت فى إحدى البلدان الهندية
ضييفة على مليونير معروف ، فلما سافرت بعد ذلك إلى أماكن
أخرى ، حدثت أصدقائى عن مضيفى ، وثروته الكبيرة ، فنظروا
إلى دهشين وقالوا :

— نحن نعرف هذا الرجل ، وهو ليس غنياً كما تتصورين ،
فثروته لا تزيد على خمسة عشر مليوناً من الجنيهات !
قلت :

— وكم تبلغ ثروة الغنى إذا فى بلادكم ؟
قالوا :

— مئات الملايين بل آلافها !
وحدثتهم عن مصر ، وأفهمتهم أن ثروة مضيفى التى يزدرونها
لا يملكها مصرى واحد ، فدهشوا وتعجبوا ، واستنكر بعضهم
قولى ، لأن مصر فى اعتبارهم بلد الغنى والرخاء !

ومرتبات كبار الموظفين الهنود عالية جداً ، تبلغ في أحيان كثيرة بضع مئات من الجنيهات كل شهر ، ويتقاضى بعضهم في سن مبكرة ، ما يتقاضاه رئيس الوزراء في بلادنا . وقد سألتني أحدهم عن نصيب زملائه المصريين من مال الحكومة ، فلما ذكرت له أنهم - عدا الوزراء - قلما يبلغون مائة جنيهه عند سن الستين ، حزن واغتم ، لفقر إخوانه كبار الموظفين المصريين !!
والعجيب أن بعض الأغنياء الهنود ينفقون المال فيما لا يجدى أو يفيد في نظري ، فيمضغون «البان» المحشوة باللاؤلؤ المصحون ، ويأكلون الفضة والذهب مع الطعام ؛ فقد دعيت مرة إلى وليمة كبيرة ، ورأيت صحون الأرز والمهلبية مغطاة بورق فضي كالذي يستعمل في لف الحلوى ، فلما حاولت أن أزيح ذلك الورق ، قيل لي إنها صفائح من الفضة الصافية ، على أن التهمها مع الطعام ، ففعلت خضوعاً لتقاليدهم ، وإن ارتجف قاي طيلة الوقت لمجرد التفكير في أن أمعائى تضم معدناً نفيساً كنت أتمنى لو قبضت عليه بيدي !

وبينما تجد أحد زعماء الهنود يوزن بالماس ، إذ بنا نجد آخر إذا رزق ابنًا أو حفيداً وضعه في مهد صغير في البهو الرسمى للقصر ،

ثم يدعو أهل مقاطعته لمشاهدته ، فيلبون جميعا الدعوة ، ويضع كل منهم عند مروره بالمهد عملة ذهبية ، مع أن هذا الرجل أغنى أغنياء العالم، وليس في حاجة إلى المزيد من أتباعه العراة الجياع . هذا هو حال أغنياء الهنود وكبار موظفيهم وسواد الشعب تفتك به المسغبة ، وخمسة وسبعون في المائة من الهنود لا يستر أجسامهم شيء غير قطعة صغيرة من النسيج البالي حول خصورهم ، والعمال والمزارعون يقاسون ألوان الحرمان ، لضالة أجورهم فطبة الكناسين أى المنبوذين ، رجالاً ونساءً ، يتقاضى الواحد منهم روبية في الشهر أى ثمانية قروش ! أما أجر العامل الزراعى ، فثلاث أنات أى تسعة ملبات كل يوم ، مع غلاء الحياة الحاضرة ! وتسعون في المائة من الشعب الهندى يتناولون وجبة واحدة كل يوم ، وهى وجبة صغيرة لا تغنى ولا تشبع من جوع ، ولا تسليح الجسم بمناعة ضد الأمراض والأوبئة المنتشرة هناك . وكل هذه الأسباب نجد أن نسبة الوفيات فى الطفولة مرتفعة جداً ، ومتوسط عمر الهندى سبعة وعشرون عاماً ، فى حين أنه فى مصر ثلاثة وثلاثون ، ومع ذلك نضج ونستغيث لصالة هذا المتوسط فى بلادنا .

ومن المؤكد أن بلاد الهند غنية، وتربتها خصبة، وغاباتها كثيفة
و ثروتها المعدنية كثيرة ، فكيف أمكن أن يبلغ الفقر فيها هذه
الدرجة ؟

ولقد أثارت هذه النقطة عجبى ودهشتى ، ودفعتنى إلى دراسة
شئ قليل عن الحالة الاقتصادية هناك ، فخرجت من تلك
الدراسة القصيرة بنتيجة صادقة وهى : إن مثل الهند مثل شجرة
ضخمة من الذهب البراق ، ولكن هذه الشجرة السحرية لا
تعطى غير ثمار الجوع والموت والحرمان !

وقد يكون تشبيهى عقيما ، وبعيدا عن الجمال ؛ ولكنى أضعه
بأمانة كما تراءى لذهنى تماما دون تحريف أو تبديل . أما كيف
ولماذا بدت لى الهند شجرة ذهبية ، فهذا ما سأحاول توضيحه
فى اختصار ، حتى لا يشغل على القارىء تتبع ذلك التوضيح .

الهند قطر عظيم ، بل قارة واسعة ، يبلغ طولها الفين من الأميال
ويبلغ عرضها الفين آخرين . وعلى هذا المسطح المترامى الأطراف
يعيش أربعمائة مليون من البشر ، أى خمس العالم !

ولم يقتصر كرم الطبيعة للهند على المساحة وعدد السكان فقط
فهى أيضا بلاد غنية من عامة الوجوه ، وفيها من الثروة ما لو حسن

استغلاله لرفع الشعب الهندي إلى مصاف أرقى الشعوب المتمدينة
أما أين توجد الثروة ، ففي المواقع ، والمناخ ، والسكان ، والطاقة
الزراعية ، والكنوز المعدنية .

وموقع الهند فريد ، ففيها من مظاهر الطبيعة ما يحميها ، ويرد
عنها شر العدوان ، فالبحر يحيط بها من ثلاث جهات ، وجبال
الهمالايا تقف سدا منيعا في الجهة الرابعة . والقارة الهندية المنيعه
بهذه الحدود الطبيعية مقسمة ثلاثة أقسام : ففي الشمال سلسلة
جبال الهمالايا أعلى جبال العالم ، وفي الجنوب هضبة الدكن ، وبين
المنطقتين تقع سهول منبسطة ذات خصوبة زراعية لا يستهان
بها ؛ وقد بلغ المزارع من هذه المنطقة مائة مليون من الأفدنة !
وتقوم الهمالايا بعمل حيوى عظيم في الزراعة ، فهي تمنع
الرياح الجافة المنحدرة من وسط آسيا ، فيظل جو الهند ممكنا
مقبولا . وهى منبع الأنهار الضخمة مثل السند والجنج والبراهما
پوترا : فرياح المنسون تحمل أبخرة البحار إلى تلك الجبال ،
فتتحول إلى أمطار غزيرة تملأ الأنهار بالمياه ، فتروى
الأراضى ، وتنبت غلة وفيرة . وبفضل الهمالايا وجدت بالهند
مساقط مياه ، تولد الكهرباء المستعملة في الأضاءة ، وفي إدارة

المصانع ، وفي تسيير القطار . ويقول الأخصائيون إن هذه المساقط لا مثيل لها إلا في الولايات المتحدة وكندا ، فلو استغلت على الوجه الصحيح ، لتوافرت الكهرباء في أصغر القرى والدساكر ، ولأصبح في مقدور كل مزارع فقير أن يكتنى جهازاً لاسلكياً ، وينير كوخه ، ويستعمل الآلات الكهربائية في حقله وعمله وطهيته . وتمتد بلاد الهند على خطوط عرض مختلفة ، وفيها المناطق الاستوائية بغاباتها وزنوجها ؛ وفيها الجبال بثلوجها الدائمة ، وسكانها الشقر ، وفيها السهول بحقولها ومزارعيها الآريين أى أن الهند تحوى أجناساً بشرية مختلفة ، وهى ميزة عظيمة ؛ لأننا نعلم أن لكل شعب صفاته الخاصة ، التى تؤهل له ناحية من نواحي الحياة العملية والاقتصادية .

وباختلاف المناطق تختلف الحيوانات أيضاً ، فهناك الدببة الثلجية ، والفيلة الاستوائية ، والسائمة على أنواعها ؛ فن البقر وحده يملك الهنود مائة وثمانين مليوناً وهو ثلث بقر العالم أجمع ، ومن الغنم والماعز سبعة وثمانين مليوناً ، وهو سبع ما فى العالم أيضاً . والسهول الزراعية واسعة يبلغ المزارع منها مائة مليون فدان ، ويمكن مضاعفة هذا القدر بوسائل الرى الحديثة . وخصب التربة

الهندية عظيم ، ومناطقها المختلفة تصلح لزراعة أهم المحصولات ،
وهي تغل في الوقت الحاضر كميات وفيرة من القمح والأرز
وقصب السكر والطباق والقطن والشاي .

أما المواد المعدنية فوفيرة في الهند، وفي باطن أرضها ما يحتاج
إليه سكانها ، وفي بمطالب الصناعة فيها ، مهما ارتقت تلك
الصناعة واتسعت ، بحيث لا يحتاجون معه إلى مزيد ؛ ففيها
المنجنيز والميكا والفحم والنحاس والبتروال والقطران والحديد
والمطاط إلى آخره . ويقول الإحصائيون إن باطن الأرض يحوى
من الفحم ستين ألف مليون طن ، وتقول الإحصائيات إن الهند
ثانى دولة في العالم من حيث المنجنيز ، وقد بلغ ما استخرج منه
عام ١٩٣٨ أربعائة واثنين وتسعين ألف طن !

والهند لا تفتقر إلى شيء : فيها مائة مليون فدان من الغابات
الاستوائية ، قال الخبراء الإنجليز إنها تستطيع أن تمد البلاد
بمائة مليون طن من الخشب كل سنة ، فلا ينال ذلك المقدار شيئاً
من عزة الغابات ، أو يقلل من كثافتها !

ونرى من هذا العرض القصير كيف بدت بلاد الهند في
نظري شجرة ذهبية ، فروعها السحرية طويلة ممتدة ، فلو أمكن

الشعب أن يصل إلى تلك الفروع ، ويستظل بها ، لئلا يكون شأنهم الحاضر .

ولكن هذه الشجرة السحرية في الوقت الحاضر لا تظل إلا القلة ، أما الكثرة فنصيبها منها الجوع والحرمان . وسأشرح في إيجاز العلات التي تحول دون الاستفادة من خيرها ؛ فأهم الأنهار التي تنبع من الهملايا ، وتروى السهول الزراعية ، وهي السند والجنح والبراهما پوترا ، لا يمكن أن تؤدي وحدها وظيفتها كاملة ، بل يجب أن تساعد مشروعات الري الحديثة ، لتتمكن من القيام بهذه الوظيفة ، وأهم تلك المشروعات القنوات التي توزع المياه بالعدل على أنحاء الهند ، وتحملها وتتوغل بها إلى الجهات البعيدة . والخزانات ضرورية أيضاً ، لحفظ الزائد أيام الفيضان ، فيستفاد منه في زمن الجفاف . ولكن القنوات والخزانات قليلة جداً في الهند ، ولا يمكن أن يفي عددها الحاضر بمطالب الأرض الزراعية ، ولذلك تذهب المياه الفائضة هباء منثوراً ، وتزرع معظم الحقول مرة واحدة في السنة ، ومئات الملايين من الأفدنة بحراء جرداء ، لو وصلت المياه إليها ، لا تقلبت إلى جنة خضراء . والقوى المائية مهمة كذلك ، فالمساقط المولدة للكهرباء

لا يستغل منها إلا الخمس فقط . ويستنفد «تاتا» المليونير الهندوسى معظم هذا الخمس فى إدارة مصانعه الجمّة ، وفى إضاءة مدينة بومباى . أما أربعة أخماس القوى الكهربائيّة فلا تجد من يستخرجها أو يستغلها ، والنتيجة أن نور الكهرباء لا أثر له فى معظم مدن الهند وبلدانها ، والإضاءة به مقصورة على بضع مدن كبيرة فقط ؛ وأكثر المصانع والقطر مازالت تسير على النمط البخارى القديم ، مما يكلف نفقات باهظة ، يرتفع معها ثمن المصنوعات الهندية إلى ضعف مثيلاتها المستوردة من الخارج .

والشعب الهندى على اختلاف أجناسه ، وتعدد مواهبه ، جاهل أمى ، لا يزيد عدد المتعلمين فيه على سبعة فى المائة مع حسن الظن . وتعدد الأديان يقسم ذلك الشعب فرقاً وأشياء ، يهدم بعضها بعضاً ، ونار الشقاق بينهم دائماً متأججة ، فتشغل الممارك الطائفية أذهانهم ، وتصرفهم عن التفكير فى التقدم والإصلاح ، ولذلك تموت المواهب ، وتنقلب نعمة تعدد الأجناس إلى نقمة فى بلاد الهند .

ولقد ذكرت سابقاً أن من نعم الطبيعة على تلك البلاد ، وفرة الحيوانات فيها . ونحن نعلم أن الحيوان عنصر هام فى حياة المزارع ،

فمنه يأخذ اللبن والدسم واللحم والصوف والوبر ، وبه يستعين في النقل والحراث والعمل . ولكن شعب الهندوس يعبد البقرة ، ويقدر الحيوانات ، ويحرم ذبحها ، وأكل لحماها ، فكانت النتيجة أن تكاثر عددها ، وغدت عبثاً ثقيلاً على البلاد . وعجز الناس عن إطعامها كما يجب ، فهزلت أجسادها ، وتضاءلت قوتها ، ولم تعد قادرة على القيام بواجباتها . وبلغ الجوع بها مبلغاً جف معه ابن سبعين في المائة منها ، فالتخفص سعرها ، وأصبحت البقرة تباع الآن بمبلغ يتراوح بين ثلاثين وثمانين قرشاً ! هذا إلى جانب ما تنزله قطعانها من خسارة زراعية فادحة ، فهي تسير عشرات على غير هدى ، وتقتحم الحقول ، فيتهدشم الزرع تحت أظلالها ، ومع ذلك لا يجرؤ أحد على زحرفها أو إبعادها ، لقد استنها في عقيدة من يعبدونها .

والزراعة صناعة سواد الشعب الهندي ، فعليها يعيش تسعون في المائة منهم ، ومن هؤلاء خمسة وسبعون في المائة لا يملكون شيئاً من الأراضي الزراعية . ومع جودة التربة ووفرة المياه ، نجد المزارعين عراة جياعاً ، فالأرض تعطيتهم أجوراً تافهة ، وغلة ضئيلة ، لا تقوم بشمن الخبز وحده . ويرجع ذلك إلى خطأ النظم

الزراعية ، فالسماد الطبيعي غير مستعمل ، لحاجة الناس إليه في الوقود ؛ والمواد الكيميائية التي تنوب عنه ، ليست في متناول المزارع الفقير ، والآلات بدائية ، ومصارف التسليف الزراعي معدومة ، وإشراف الحكومة يوجب الخزي ، فقد خصصت مثلاً مفتشاً زراعياً لكل تسعمائة مزرعة ! والنتيجة أن أجهدت الأرض ، فتصاءلت غلتها ، وقل محصولها ، وأعطى فدان القطن منها ثمانية وتسعين رطلاً ، في حين أنه يعطى مائتين في الولايات المتحدة ، وأربعمائة وخمسين في مصر ! وهكذا الحال في القمح والأرز وغيرهما من الغلات .

أما كنوز الأرض المعدنية ، فنصفها مهمل ، والنصف الآخر يستخرج بوسائل بدائية تضيق جزءاً مذكوراً منه ، والجزء الباقي يباع للدول ذات النفوذ بنصف ثمنه الحقيقي ، فيصنع في تلك الدول ، ثم يعود إلى الهند آلات فاحشة الثمن ، يعجز عن شرائها الكثيرون .

ولا شك أن هذا المرض المقتضب يمكننا من لحظة خاطفة إلى حالة البلاد الاقتصادية ، ويكشف لنا عن موارد الثروة ، وعلات تلك الموارد ، وهي علات خطيرة ، لا يمكن أن تعالج إلا باستقلال

البلاد ، حتى يصبح للهندي الرأي الأول في ترقية وطنه ، واستغلاله لصالحه ، لا لصالح غرباء تقف أغراضهم الاستعمارية دون انتشار الهند من وهدتها ، والأخذ بيدها إلى المدنية والتقدم .

٩

تبرز في أفق السياسة الدولية مشاكل كثيرة ، تعقد أمور العالم ، وتصبغ المستقبل بلون قائم من الوجوم والتشاؤم . فالشعوب تتطاحن والأمم تتنازع ، وكل دولة تعمل على سحق غيرها ، من أجل السيادة والتفوق ، ولسكن مشكلة الهند فريدة في نوعها ، تختلف كل الاختلاف عما نراه على مسرح سياسة العالم الحديث ، فالتطاحن فيها داخلي ، والصراع محلي ، والشعب فرق مختلفة ، يحاول كل منها أن يمسك بخناق بقية مواطنيه فيخمد أنفاسهم ، ويبيدهم عن آخرهم ، ليكون له النصر والغلبة . وتعود مشكلة الهند الطائفية إلى ألف سنة مضت ، عندما كان أهل الهند — وجلهم من الهندوس — يتيهون في بيداء الجهل والخرافات ، ويفتك بهم الهزال وضعف البنية ، لنفورهم من أكل اللحم والبيض ، كما يقصى بذلك دينهم ، الذي يدعو

إلى عبادة البقرة ، وتقديس الروح ، حتى روح أحقر الحيوانات والحشرات .

وإذ ذاك جاء إلى البلاد أول فوج من المسلمين ، ولم يكن عددهم يتجاوز خمسين ألفاً ومع ذلك استطاعوا أن ينتصروا على الملايين ، فخصمت الهند لسلطانهم ، وحكمت فئة قليلة أمة كبيرة قرونًا متعاقبة ، بفضل ما امتازت به هذه الفئة من ثقافة عالية وبنیان قوى ، وشجاعة وحنكة في ميادين الحرب والوغى .
ولكن حكام المسلمين طغوا بعد عدل ، وأضلتهم الثروة العظيمة التي أصابوها من بلاد الهند الغنية ، فتمردوا ، واستبدوا بالناس ، وحطموا المعابد ، وشغلوا بمباهج الحياة عن مصالح الوطن فبدأ عهد اضمحلال ، وتطرق الفساد إلى الإمبراطورية الإسلامية في الهند .

وانتهز الإنجليز فرصة هذا الاضمحلال ، فتسللوا إلى الهند وأنشأوا هناك شركة تجارية ، توسعت شيئًا فشيئًا ، حتى ظفرت بالبلاد وحكمتها ؛ وسر الهندوس لخلاصهم من سلطان أعدائهم المسلمين ، فرحبوا بالمستعمر الجديد ، وتعلقوا بأهداب الأجنبي الظافر ، وقدموا إليه آيات ولائهم المطلق وخضوعهم التام .

واستجباب المستعمر إلى شعورهم ، وانحاز إلى الأغلبية الضعيفة
 ضد الأقلية القوية ، وكافأ أصدقاء الهندوس على خضوعهم
 وولائهم بالوظائف الهامة وغير الهامة ، وأنزل بسادة الهند
 المسلمين أنواع الاضطهاد والذلة ، فلم يمض وقت طويل حتى
 سيطر الهندوس على مرافق البلاد من أقصاها إلى أدناها .
 وانتشرت المدارس الإنجليزية في أنحاء الهند ، فثارت
 كرامة السادة المسلمين ، وقاطعوا دور العلم التي افتتحها المستعمر
 أما الهندوس فقد أقبلوا عليها ، ودخلوها أفواجا : أولا بدافع
 الرغبة في رفع مستواهم الثقافي ، ليصل إلى مستوى المسلمين ،
 وثانيا لإرضاء السيد الجديد الذي يحتمون به ، ويتعلقون بأهدابه .
 ومرت الأجيال فأصاب الهندوس هدفهم ، فتعلموا وثقفوا ،
 واضمحلت شأن المسلمين الثقافي ، وصارت نسبة التعليم فيهم أقل
 منها في الهندوس بكثير .

وعندما حقق الهندوس جوهر أهدافهم ، وهو العلم والوظائف
 التفقتوا إلى الأعراض ، وبحشوها بدقة ، فوجدوا أن أعداءهم
 مازالوا يتفوقون عليهم في الصحة والمال ، فقرروا علاج
 الناحيتين . وأقبل بعضهم على أكل اللحم سرآ ، وأكثر

البعض الآخر من تناول الأطعمة التي تتوافر فيها مواد اللحم الغذائية ، ومارسوا الألعاب الرياضية، فزايدهم الهزال والضعف ، وأصبح في مقدور الهندوسى ملاقاته المسلم ، بعد أن كان ذلك المسلم يخيف وحده حيا هندوسيا بأجمعه .

وأخرجوا أموالهم بالربا ، فاستدان المسلمون منهم ، وعجزوا عن وفاء ديونهم ، فقتسرت الثروات من أيديهم إلى أعدائهم ولم يبق في حوزتهم غير خمسة في المائة من مجموع أراضي الهند ، بعد أن كانوا يملكون ثلثها . وفتح الهندوس المصارف لتنظيم ثرواتهم ومعاملاتهم الاقتصادية ، في حين رفض المسلمون أن يفعلوا مثل ذلك ، لأن المصارف معناها الربا في نظرهم ! وأصبحت التجارة والصناعة بطبيعة الحال في يد الهندوس ، ولم يبق في يد المسلمين شيء .

وهكذا حقق الهندوس أهدافهم جميعها ، فأصابوا من الثقافة والمال والصحة والسلطان ما كانوا ينشدونه ، ففاقوا المسلمين في كل ميادين الحياة ، وغدوا قوة هائلة تجرف ماعداها . وتنهبوا إلى قوتهم الجديدة ، فطمعوا في الاستقلال ، وتمردوا على ولايتهم الانجائيزى القديم ، وثاروا عليه بعد ذلة وخضوع ،

وقاموا يطالبونه بالحرية ، فتغيرت السياسة البريطانية ، وجنحت إلى جانب المسلمين الذين أضعفهم وأذلهم اضطهادها القديم ، فرحب هؤلاء بتلك السياسة الجديدة ، وجروا وراء المستعمر ، وأمسكوا بأذياله خوفاً من أعدائهم الأقوياء ، فانقلبت الآية ، وأعاد التاريخ نفسه ، ووقف المسلمون موقف الهندوس في بدء عهد الاستعمار !!

هذا مجمل تاريخ المشكلة الطائفية ، ومنه نرى أن الهندوس والمسلمين على مر الدهور والأجيال ، كانوا في خصام وعراك ونزاع لا ينتهى . ولم يحدث في تاريخ تلك البلاد أن تصافى الفريقان تماماً ، وتعاونوا قلباً وقالباً ، وأن سجيات بعض اليهود هدنة قصيرة مبعثها الخوف لا الرضا .

واشتد الخلاف بطبيعة الحال خلال الاستعمار ، وأذكت القوة الأجنبية نيران ذلك الخلاف ، عملاً بسياسة فرق تسد ! فما هو السبب الأول في هذا النفور الطائفي الأذى ؟ !

اعتقد — أن لبعض الشرائع الهندوسية دخلاً كبيراً في التفرقة بين الطائفتين . ويقوم الدين الهندوسى على نظام عجيب من تعدد الطبقات ، يبدأ من أعلى بالبراهما أو أشرف

الدين، وتليهم طبقة الحار بين، فطبقة التجار والمزارعين، وتنتهى تلك السلسلة بالمنبوذين أو الأنجاس، وهم الطبقة العاملة التى تعرف بالكناسين. ولكل طبقة من الميزات والحقوق ما يرفعها عما يليها، اللهم إلا المنبوذين، ولا حقوق لهم ولا ميزات.

ولا يقتصر نظام الطبقات هذا على شئون الدين، بل هو أساس اجتماعى قوى، فكل طبقة مضطرة بحكم تعاليم الشريعة الهندوسية، أن تلتزم حدودها، بحيث لا يصح لأفرادها التعامل مع غيرهم، أو احترام مهنة غير التى خصصت لهم، أو الزواج من طبقة أخرى. ومهما ارتقى الهندوسى واغتنى، أو مهما ذل وافتقر، فلا سبيل إلى خروجه عن طبقته، ودخوله فى أخرى، ولذلك كان من المألوف أن يقابل المسافر إلى هذه البلاد فقيراً من البراهما، يتضور جوعاً، ومع ذلك لا يستطيع اكتساب رزقه بالزراعة، لأن الزراعة لا تليق بمكانته، فهى مهنة طبقته أدنى من طبقته.

ولو اقتصر الأمر على هذا الحد لكان محتملاً، ولكن مسألة المنبوذين تدعو إلى الأسف، فعملهم محدود بحكم النظام الهندوسى، لا يخرج عن كسح الفضلات وكنس الطرقات،

وبعض الحرف الدنيا الماثلة . ويعتبر المنبوذ نجساً لا يصح لمسه ، وإن حدث اللمس عفواً استدعى الأمر تطهيراً يتطلب إجراءات دينية قاسية ، منها الاغتسال في الأنهار المقدسة .

وعدد المنبوذين خمسون مليوناً ، ومع ذلك يعيشون في ذلة دفعت بالكثيرين منهم إلى اعتناق الإسلام أو المسيحية ، هروبا من الذل والاستعباد .

ويعتبر الهندوس أصحاب العقائد الأخرى منبوذين أيضاً ، فالمسلم بالنسبة إليهم نجس ، وكذلك المسيحي واليهودي ، ولهذا يرفض الهندوسي رفضاً باتاً أن يسمح لمسلم بزيارته ، والشرب من مياهه ، وشراء الطعام من حانوته . ويفضل الموت جوعاً أو عطشاً على مد يده إلى طعام أو شراب لمسه مسلم ، أو نال منهما شيئاً ، ولذلك كان في كل مكان بالهند ماء للمسلمين ، وماء للهندوس ، وطعام للمسلمين ، وطعام للهندوس وهم جراً .

ولا شك أن هذه الفروق المحزنة في طريق الانقراض بين أفراد الطبقة الراقية والمتعلمة ، فهم يتزاورون ويختلطون ، ويجالس بعضهم بعضاً ؛ ولكن هؤلاء قلة نادرة ، والحق والنفور

والسكراهية ما زالت تأكل قلوب ثلاثة وتسعين في المائة من الشعب على الأقل .

ولقد أخفقت الجهود في التوفيق بين الطرفين ، لأن أوجه الخلاف مرجعها الدين ، وليست بنت تقاليد اجتماعية ، يمكن القضاء عليها ، وتغييرها بسهولة . وأظن أن العداء سيبقى في الهند ما بقي الجهل ، فالجهل يورث تعصباً دينياً ، يحول بين المرء وتفهمه روح دينه على حقيقتها ، مما يدفعه إلى التعلق بالأعراض دون الجواهر .

ولقد أبدى المسلمون على الرغم من ذلك استعدادهم للتفاهم والتعاون ، أو أنهم على الأقل تظاهروا بذلك ، فلما شكل غاندى حزب المؤتمر انضموا تحت لوائه ، وشاركوه في الجهاد أملاً في أن يزيل العمل المشترك عداوة القديم المتأصلة في النفوس . وسارت الأمور على ما كان يرجى ، إلى أن تولى حزب المؤتمر حكم البلاد عام ١٩٣٧ ، فطالب المسلمون أن تكون لهم السيادة في المقاطعات الإسلامية ، حتى لا ينشب خلاف بين الحاكم والمحكوم ، ولسكن غاندى واتباعه رفضوا هذا المطلب ، وصمموا على أن يكون تمثيل المسلمين في كل مقاطعة

مطابقاً لنسبتهم العامة من الشعب ، وهي نسبة الربع . أى أن
يظل المسلمون إلى الأبد أقلية ، لا كلمة لها ولا رأى ، حتى في
المناطق الإسلامية البحتة ، مثل البنجاب وكشمير والسند
والبنغال ومقاطعة الشمال الغربى وبلوخستان ، فلا ينالوا فيها غير
ربع المقاعد فقط ، وتبقى ثلاثة الأرباع للهندوس .



ودب الخلاف ، فحدث ما كان يخشى ، واختلف الفريقان
وأساء كلاهما الظن بالآخر ، فاتهم الهندوس المسلمين بالإخلال
بالأمن ، ورد المسلمون هذه التهمة بتهمة ظلم الهندوس لهم ،
واستشهدوا ببعض الوقائع .

وزاد البلاء عند ما خرج حزب المؤتمر بقرار جديد ، يتلخص
في الاستغناء عن لغة « الأردو » ، بجعل « الهندوستانية » اللغة
الرسمية في جميع أنحاء البلاد ، مع أن الأولى لغة المسلمين من
زمن بعيد .

وانسحب المسلمون من حزب المؤتمر ، وخرجوا بزعامة محمد
على جناح ، وأعادوا تشكيل حزب الجامعة الإسلامية ، وبذلك
انتهى عهد الصفاء المصطنع ؛ وبدأ التطاحن والعراك
من جديد .

وفكر المسلمون في موقفهم جيداً ، فوجدوا أن الخلاف بينهم
و بين الهندوس واسع جوهري ، فهم يختلفون في الجنس والدين
واللغة والزي والعادات والتفكير والطعام ؛ فعادوا إلى الفكرة
القديمة التي نادى بها شاعر الهند « محمد إقبال » ، وهي فكرة
تقسيم الهند قسمين ، يكون أحدهما من المناطق الإسلامية ،

ويسمى دولة « باكستان » . ونلاحظ أن كل حرف من هذه الكلمة مأخوذ من اسم مقاطعة من المقاطعات الإسلامية ، وهي البنجاب وكشمير والسند ومقاطعة الشمال الغربي والبنغال وبلوخستان !

ولم يكتف المسلمون بالمطالبة بتقسيم الهند ، بل نادوا أيضاً ببقاء الانجليز ، حتى يتحقق الأمل ، ويتم التقسيم ، والا استبد الهندوس بهم وقضوا عليهم ، وهو أمر ميسور ، لتفوقهم على المسلمين في المال والثقافة والعدد والسلطان .

وعاضد المستعمر فكرة باكستان سرّاً ، وبهذه المعاضدة أشد ساعد المسلمين في المطالبة ، فثارت ثورة الهندوس ، وعارضوا فكرة التقسيم ، لثلاثة أسباب خطيرة : أولها أن فكرة باكستان تحطم وحدة الهند ، وثانيها أن المناطق الإسلامية غنية بالغلة والمعادن ، فلو انفصلت عاش الهندوس إلى الأبد تحت رحمة مايجود به المسلمون عليهم . والسبب الثالث ، وهو أخطرها قيام دولة إسلامية في تلك المناطق ، يجعلها متاخمة لأفغانستان فأيران ، فبلاد العرب جمعاء ، ومثل هذه المتاخمة تقرب بين

مسلمى الهند وإخوانهم فى البلاد الأخرى ، مما يجعلهم قوة
تهدد الهندوس .

وخيل الى الهندوس - وهم محقون فى خيالهم - أن
المستعمر يكتفى وراء فكرة باكستان ، فضاغفوا حملتهم عليه ،
وألحوا فى استقلال سريع ، وتمردوا تمرداً شديداً ، فانتشرت



الثورات ، وعم العصيان
أنحاء الهند المختلفة . وكل
ذلك ليضطر المستعمر إلى
الخروج قبل أن تتحقق
باكستان . ويقود هذه
الحملة ويوجهها
« جواهر لال نهرو »
وجواهر لال نهرو
رجل على الثقافة ؛ قوى
الشخصية ، حاد الذكاء ،

جواهر لال نهرو .

بممتاز عن كثير من زعماء الهندوس بروح متسامح مجدد
كفيل بأن يجعله حاكماً عادلاً عظيماً إذا أطلقت يده ؛ ولكن

يد جواهر لم تطلق إلى الآن ، فهو تلميذ غاندى ، وتابعه الأمين ؛
وغاندى بالرغم من صفاته الطيبة الكثيرة ، متعصب لدينه
متعصباً شديداً يحول دون تفاهم الفريقين المتخاصمين .

وجواهر زعيم الهندوس الأول ؛ فالشعب يعتبر غاندى الآن
أباً روحياً فقط ؛ يستمد منه الوحي والبركة . أما السياسة
والقيادة فالعميون فيها تتطلع الى جواهر لال .

ويقول الهندوس فى المشكلة الطائفية ، وفى مسألة باكستان :
« نحن والمسلمون أخوة ؛ ولكن المستعمر يفرق بيننا
وبينهم ، لأن التفرقة تزيد قوة وسلطاناً . ويوم ينسحب هذا
الدخيل سيعود الصفاء وينمحي كل خلاف وعداء . ونحن على
استعداد للتفاهم مع المسلمين ، بتأمين حياتهم وسعادتهم وأموالهم ،
واقدر خطونا فعلا الخطوة الأولى فى مؤتمر سملا ؛ فأعطيناهم
نصف المقاعد ، مع أن تعدادهم لا يخولهم أكثر من الربع ؛
ومع كل ذلك خذلونا فى اللحظة الأخيرة ، وتخلفوا عن الحضور ،
فأخفق المؤتمر ، وضاعت فرصة استقلال الهند . والجامعة
الإسلامية ليست حزبا سياسياً ، بل هى هيئة دينية ، ولو لم تكن
كذلك ، لوقف المسلمون إلى جانبنا فى الجهاد حتى إذا تحقق

الاستقلال ، وحررنا وطننا من الأجنبي ، استطعنا تسوية خلافاتنا القائمة ، فإن لم نستطع تسويتها ، تقاتلنا نحن والمسلمون ، وبلاد الهند لمن ينتصر . أما باكستان ، فدون تحقيقها الدماء . »

هذه وجهة النظر الهندوسية ، ولقد تناقشت فيها مع الكثيرين منهم ، فاتفق رأيهم جميعاً على ذلك . ورأيت بعد أن أستوعبتها جيداً ، أن أستطلع رأى قادة المسلمين ، فسافرت إلى دلهي ، وقابلت محمد علي جناح زعيم الجامعة الإسلامية .

ومحمد علي جناح شخصية فذة ، فهو رجل عالي الثقافة ، عظيم الذكاء ، بادی النشاط والقوة والجلال ، فمن عينيه المتألفتين ينبعث شرر عجيب ، وعلى أنفه المحدودب ترسم قوة الصقر الجارح ، الذي تأبى عزته أن يهبط على فريسة ، ثم يحلق في الهواء ثانية بدونها . وليس محمد علي جناح بالرجل المتعصب ديناً ، فهو حديث الأفكار والآراء ، واسع الصدر ، يعرف أن التعصب لا خير فيه ، ولكن مع ذلك يتخذ الدين وسيلة لضم صفوف المسلمين الهنود ، المفتقرين إلى الثقافة والمنطق . ولقد نجح فعلاً بهذه الوسيلة في ضم صفوفهم ؛ فغدوا وحدة قوية ، يخشاها الهندوس في الوقت الحاضر .

وعندما اجتمعت به، وسألته
عن رأيه في مشكاة الهند الخطيرة
قال :



— «إن الخلاف بيننا وبين
الهندوس جوهرى ، فالقسام
والصدقة إذا من المستحيات ،
فهم شعب ونحن شعب ، وربط
الاثنين لا يمكن بحال من الأحوال :
نحن من الجنس الآرى وهم درافدا

ومغول . ونحن من أهل الكتاب ، محمد على جناح زعيم الجامعة الاسلامية
وهم وثنيون يعبدون البقرة ويقدمون الحيوانات . وسنظل إلى
آخر الدهر نذبح هذا المعبود ونأكله ، وسيظلون هم إلى آخر الدهر
أيضاً يقدسونه ويعبدونه . هم يتكلمون الهندوستانية ، ولا يريدون
عنها بديلاً ، ونحن نتكلم الأردو ، وإن تقبل عنها بديلاً . أبطال
تاريخنا أعداؤهم ، لأنهم دحروهم وهزمهم . وأبطال تاريخهم
أعداؤنا ، لأنهم دحرونا وهزمونا . ويوم يحتفل أحد الفريقين
بذكرى أبطاله ، يبكي الآخر حزناً وحسرة ! ولا يمكن أن

نزول الخلافات بيننا وبينهم ، ولن نشق في وعودهم ، فقد حاولنا وأبنا بالخيبة أكثر من مرة ، وحكومة المؤتمر دليل على صدق قولي ، وفظائعها معنا شهيد على ذلك ، فلن نقبل بعد الآن أن يحكمنا الهندوس ، وهم كثرة ونحن قلة ، فبمثل ذلك الحكم فناؤنا النهائي . وفرصتنا الوحيدة باكستان ، وسنريق دماءنا إلى آخر قطرة في سبيل تحقيقها ، فالمناطق الإسلامية يجب أن يحكمها مسلمون ، والمناطق الهندوسية يحكمها هندوس ، وستبقى أقلياتنا عندهم ، وأقلياتهم عندها ، فيحفظ التوازن ، ويطمئن الطرفان إلى العدالة والمساواة .

ولما اعترضت على فكرة التقسيم ، وتعجبت لنداء حزب الجامعة الإسلامية ببقاء الإنجليز في البلاد ، قال :

« ليست فكرة التقسيم جديدة ، فالبلاد أوسع من أن تكون دولة واحدة ، والتقسيم في الهند قائم منذ آلاف السنين إلى الآن ، بدليل وجود المقاطعات الهندية المستقلة ، أي إننا الآن دويلات صغيرة ضمن حدود دولة كبيرة » .

وسكت محمد علي جناح قليلاً ثم قال في شيء من الحدة :
 — « ليس في مناداتنا ببقاء الإنجليز إلى أن تتحقق فكرة

باكستان ، ما يدعو إلى العجب والدهشة ، فإن خرجوا الآن اتهمينا تماماً ، فضلاً عن أننا لا نقبل أن نستبدل باستبداد الإنجليز استبداداً هندوسياً أقسى وأمر ، فالإنجليز على الأقل من أهل الكتاب مثلنا ، والتفاهم معهم ميسور ! » .

ولم أوافق على هذا الجزء الأخير بطبيعة الحال ، ولكنني سكوت ولم أعترض عليه ، فالمناقشة في مثل هذه النظريات غير مجدية . ولم أشأ أن أسأل محمد علي جناح عن السبب الذي حدا به لأن يرفض نصف مقاعد مؤتمر بيملا ، مما أدى إلى القضاء على فكرة الاستقلال إذ ذاك ، فلقد فهمت السر قبل مقابلته ، من محادثات الكثيرة مع قادة الرأي في الهند .

والحقيقة أن حزب الجامعة الإسلامية طالب بنصف المقاعد ، فعارض الهندوس ، معارضة شديدة ، ولكنهم قبلوا أخيراً ، وخضعوا لمطالب المسلمين ، أملاً في تحقيق الاستقلال . ولكن نائب الملك في الهند لعب دوراً خفياً ماهراً ، ففاجأ حزب الجامعة بعد الاتفاق برأى جديد ، وأعلنه أنه يحتفظ ببعض المقاعد ، لحزب إسلامي آخر في بومباي . ولما كان حزب الجامعة هو حزب الأغلبية الإسلامية الساحقة ، ولما كان حزب بومباي

صغيراً ، يعد أعضاؤه على الأصابع ، ويتصفون بحبهم للمستعمر
 مما أفقدهم احترام مواطنيهم جميعاً ، فقد ثار محمد علي جناح لذلك ،
 ورفض قبول الوضع المهين ، وتحالف عن الحصور احتجاجاً ، فمات
 المؤتمر في مهده ، واتسعت شقة الخلاف ، لأن الهندوس رأوا في
 موقف الجامعة عاملاً أساسياً في ذلك المآل .

والواقع أن مشكلة الهند خطيرة عويصة ، تأصت جذورها
 في المجتمع ، حتى أصبح حلها يبدو مستحيلاً ، ولكني مع ذلك
 ما زلت أقول إن الهند لو تركوا معاً دون عنصر ثالث محرك
 للبغضاء بينهم ، لنظموا أمورهم ، وقضوا على خلافاتهم .

ومصيبة الهند الكبرى في زعمائها ، فبالرغم من أهدافهم
 الطيبة ، ومقاصدهم النبيلة ، لم يخلقوا لاسلم والوفاق ، فلقد ولد لهم
 الخلاف والعداء والصراع ، وأصبحوا لا يصلحون لغيرها . أما
 السلام ففي حاجة إلى زعماء آخرين ، من أبناء السلام لأبناء القتال ،
 فنحن نعرف أن القائد الحربي ، قد يسجل لبلاده نصراً عالمياً
 في الحرب ، فإذا وضعت الحرب أوزارها ، وعاد إلى وطنه ، عجز
 عن إدارة دفة الشؤون في عهد السلم الذي لم يخلق له .

وليست هذه الظاهرة مقصورة على الهند ، بل توجد في جميع

البلاد الناشئة مثل بلادنا ، تلك التي حكمت عليها الأقدار بالجهاد والصراع من أجل حرية مسلوبة ، فزعماءها أيضاً أبطال حرب ، لا قادة سلم وهدوء . ولو تركنا السلم بين أيديهم المقاتلة ، لتحركت طبيعتهم الحربية مرة أخرى ، وقامت تخلق معارك داخلية جديدة ، تستنفد فيها قوتها .

١٠

قرأنا في الصفحات السابقة مجالا للمشكلة الطائفية في الهند ، يتضمن أقوال كل فريق وبرايمه في التدليل على صحة وجهة نظره : فالمسلمون يقولون المرة بعد الأخرى إنهم شعب قائم بذاته ، لا صلة له بالهندوس ، ولا رابطة . تجمع بينه وبين الطوائف الأخرى . أما الهندوس فينكرون ادعاء المسلمين ، وينسبونه إلى تعصب ديني ، يثيره المستعمر في قلب الأقلية الكبيرة ؛ ثم يؤكدون أنهم والمسلمين شعب واحد ، لا يصح تقسيمه ، أو عزل طائفة منه .

والآن سنرى مبلغ دعوى المسلمين من الحقيقة ، ونصيدها من

الصدق ، وذلك بسرد حججهم الجغرافية والتاريخية ، وللقارىء بعدها أن يحكم لهم أو عليهم .

يقول المسلمون : إن بلاد الهند أقرب إلى قارة منها إلى دولة ، فطولها ألفان من الأميال ، وعرضها ألفان آخران ، ولهذا الاتساع العظيم تحتوى البلاد على شتى أنواع المناخ ، ففيها الجبال الشاخنة التى تغطيها الثلوج طيلة العام ، وفيها الصحارى القاحلة ، والسهول الخصبة ، والغابات الاستوائية الكثيفة .

ويختلف السكان باختلاف مظاهر الطبيعة ، ولذلك فهم خليط عجيب ، لا مثيل له فى الدول الأوروبية ، مع أن مساحة الهند تماثل مساحة أوروبا خلا روسيا . ولكن سكان أوروبا المتسعة فينتمون إلى شعبة بشرية واحدة ، وهى الشعبة البيضاء ، فهم يرتبطون معاً برابطة اللون ، مضافاً إليها رابطة الدين وهى المسيحية . أما الهنود فينتمون إلى ثلاث شعب : البيضاء والصفراء والسوداء ، ويتباينون فى اللون والدين ، وفى كل مظهر آخر من مظاهر الحياة . ومع ذلك نجد أن أوروبا مقسمة إلى عشرات الدول ، فلماذا تكون الهند دولة واحدة ؟

والأجناس البشرية المختلفة ، لا تعيش مختلطة فى الهند ،

فلكل منها موطنه الخاص ، الذى كلفته الطبيعة له ، لاستحالة حياته فى غيره : فالشعب الأبيض مسلم الدين ، آرى الجنس ، يقطن الشمال الغربى ، ويتكلم الأردو وهى لغة آرية . وموطنه صحارى قاحلة ، وسهول واسعة ، يبلغ متوسط الأمطار فيها عشرين بوصة فى العام على أكثر تقدير ، وفى بعضها يبالغ خمس بوصات فقط . والجو صحراوى ، قارس البرودة فى الليل ، مشمس معتدل فى النهار ، فإذا جاء الصيف اشتدت الحرارة ، وهبت رياحها الساخنة ، على تلك الأراضي المستوية ، حتى تكاد تحرق بلمحاتها ما تجده فى طريقها .

واقدها جرح هؤلاء الآريون من آسيا الوسطى ، فاحتلوا سهول الهند الشمالية الغربية ، لأنها فى جفاف المناطق التى نزحوا منها ، ولم يستطيعوا على مر القرون أن يتقدموا أكثر من ذلك ، لأن التكوين الجثمانى والصحى لتلك الفئة ، لا يساعد على احتمال جو المناطق الجنوبية الاستوائية ، ولا الجهات الشرقية المنسوانية . والآريين الهنود ميزات ظاهرة : فهم بيض الوجوه نسبياً ، عريضو الأكتاف ، طوال القامة ، أنوفهم حادة ، وشفاههم رقيقة . وهم يأكلون اللحم كثيراً ، ولا يصنعون خبزهم إلا من

القمح ، فضلاً عن أنهم ، بحكم المناطق التي يعيشون فيها ، كرماء مثل عرب البادية ، خياليون أهل أدب وشعر ورقة .

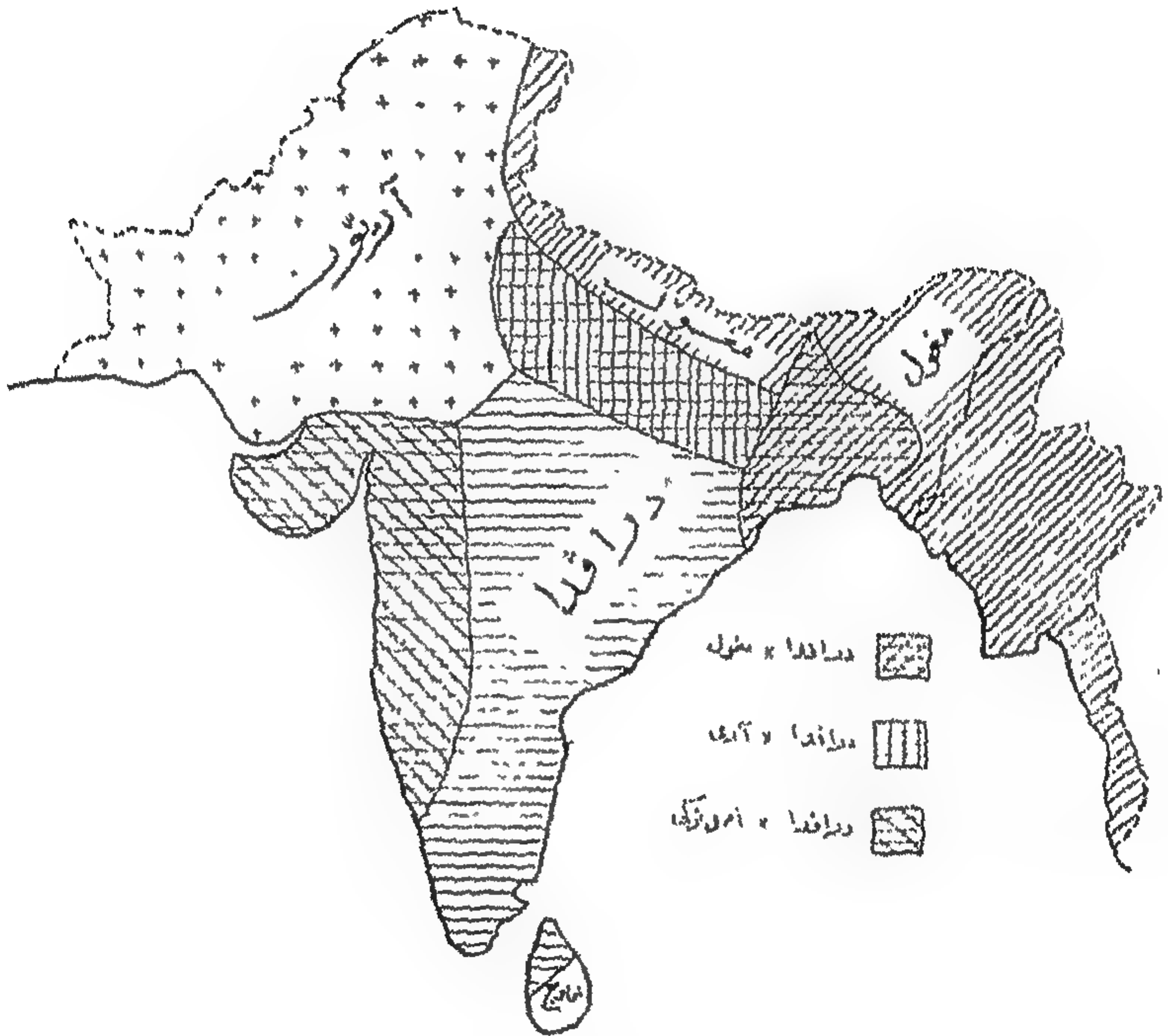
ويتخذ هذا الفريق الإسلام ديناً ، فيؤمنون بالله ووحدانيته ، ويحترمون الأديان السماوية الأخرى ، ولا يعترفون بالتفرقة ، وسمو طبقة على أخرى ، فالجميع سواء أمام العدل والشرعية ، وأقرب الناس إلى الله وأكرمهم عنده أتقاهم .

ولغتهم الأردومليئة بالألفاظ الفارسية والعربية ، وهم يتمسكون بها ويكتبونها بحروف عربية ، ففيها كلمات من القرآن ، وعليها بنوا ثقافتهم وآدابهم وأشعارهم الرقيقة الخالدة .

ولقد ميزت الطبيعة هؤلاء حتى في الحيوان ، فالجمل دابتهم الأساسية ، ولا وجود له في غيرها من المناطق ، فقد خلق الجمل للمناطق الرملية ، ولذلك يحتمل العطش ، ويقطع بخفافه القفار والرمال ، وتتسع خياشيمه ، لرياح الصحارى المحملة بالرمال .

أما الجنس الأصفر فيعيش في شرق الهند حيث الأمطار شديدة الغزارة ، يبلغ متوسط ما يسقط منها كل عام مائة بوصة ، والشتاء في هذه المنطقة معتدل ، وصيفها مقبول ، بفضل الأمطار الغزيرة ، ورياحها منسوية تساعد على نمو غابات كثيفة متشابكة الأغصان ،

فيحتجب الضوء في قلب تلك الغابات ، وتبدو ظلاماً دامساً في
رائحة النهار .



توزيع الأجناس البشرية في الهند

« والهفود الصفرا مزيج من الدراندا والمغول أصلاً ولغة ،
 (فلغتهم سنسكر يتيمة تكتب بحروف عجيبة خاصة) ودماءهم المغولية
 لا تنحدر من المغول المسلمين الذين اجتاحتوا شمال غرب الهند
 أيام الامبراطورية الهندية الإسلامية ، بل هم سلالة المغول
 الوثنيين الذين انحدروا من هضبة التبت في غارات قديمة سابقة
 للأسلام . وهم قصار القامة صفراء اللون أنوفهم فطساء ،
 وعيونهم ضيقة متقاربة ، فضلاً عن أنهم نباتيون ، لا يتذوقون
 اللحم ، ولا يصنعون خبزهم من القمح أبداً ، ويعيشون على
 الأرز الذي ينمو عندهم في كثرة وسهولة . والطعام مظهر من
 مظاهر اختلاف البشر ، وقد قال « دكتور ستامب » الجغرافي
 الإنجليزي ، عندما تكلم في كتابه ، عن منطقة مدراس الهندية :
 « بالنظر إلى الشمال ، نلاحظ غياب القمح في هذه المنطقة .
 ومنذ سنوات مضت حدثت مجاعة شديدة في مدراس ، فاستوردت
 الحكومة من الشمال كميات كبيرة من القمح إلى المنطقة الجوعانة ،
 ولكن اختلاف العادات بسبب اتساع الهند ، والرجعية الموروثة
 في الجماهير الجاهلة ، جعلوا الناس يموتون آلافاً ، وهم على مرأى
 من عربات القمح ، التي أبوا أن يلمسوها . . . » .

ولقد صدق دكتور ستامب في قوله فقد أبى هندوس مدراس ،
أن يلمسوا القمح لأنهم اعتادوا الأرز ، فبقيت العربات محملة كما
هى ، وأمات الجوع آلاف الناس .

ولأن الطبيعة كريمة مع الصفر ، تعطيهم كل ما يحتاجون إليه ،
نراهم على عكس المسامين الآريين بخلاء ، لا يعرفون الكرم ،
ولا تجود أيديهم بشيء ، لأنهم لا يفهمون معنى لذلك ، ما دامت
الطبيعة تقوم عنهم بواجب الكرم نحو الجميع وتمتاز هذه المنطقة
أيضاً بحيواناتها ، فالفيل دابتها الأولى ، وبفضل جلده السميك
يمكنه اختراق طريقه في الغابات المتشابكة الأغصان ، وبخراطومه
الحساس يتحسس طريقه ، ويحطم الأشجار التي تعوقه ، ومعدته
الضخمة تتسع لقدر كبير من الطعام الموفور في كل مكان .

والهندوسية دين أهل هذه المنطقة ، وهى تختلف عن الإسلام
كل الاختلاف ، فتقوم على عبادة البقرة وتقديس الروح ، ومرجع
ذلك عدم استقرار الحياة حيث يعيشون ، بفعل صواعق المونسون
في الشرق والجنوب ، وبفعل ثعابين السكبرا السامة ، ووحوش
الغابات الضارية ، والأوبئة والأمراض القاتلة ، التى تنتاب هذه
المناطق كثيراً ، فتودى بأرواح الآلاف . وهذه العوامل تنقض

فجأة وتزول فجأة ، لذلك يخشى الناس شرها ، ويعتبرونها مظهرآ من مظاهر غضب الآلهة ، ويقدمون من أجلها القرابين ، ويعبدون تلك الروح الغامضة المجهولة ، التي تغادر الإنسان ، فتتركه بعد ثمانية واحدة جثة هامدة .

ومن أصعب الأمور أن نصف الديانة الهندوسية ، فقد حار في ذلك الوصف كتاب ومؤرخون كثيرون ؛ فقال مرجع الإنجلىزى :

« إنها مجموعة من الحقوق والعادات والأساطير » .

وقال أحد زعماء الهندود :

« إنها ما يفعله عامة الهندوس » .

وعلى كل حال فهى مجموعة من الأنظمة ، تقوم على أساس متين من تعدد الطبقات ، وفصل بعضها عن بعض ، مع وضع واجباتها وحقوقها ، بحيث تقرر مركز الإنسان الاجتماعى من المهد إلى اللاحد . ومن أجل ذلك لا يستطيع هندوسى ، مهما حاول ، أن يخرج عن طبقته ، أو يحطم الجدران الفاصلة بينه وبين غيره .

والجنس الأسود ثالث الأجناس البشرية الهندية ، من سلالة « ما قبل الدرافيدا » ، أى أقدم الأجناس البشرية فى الهند .

ويسكن هذا الفريق الجنوب الاستوائي ، حيث لا تتغير
الفصول ، فيغطي النبات الأرض طوال العام ، وتنتشر المستنقعات
في كل مكان ؛ واستخاء الطبيعة نراهم كسالى ، لا يقوم معظمهم
بعمل ، ما دامت ضروريات الحياة في متناول كل يد .

وزنوج الهند سود اللون ، قصار القامة ، صغار الأجسام ، فطس
الأنوف ، غلاظ الشفاة ، ويتكلمون لغات زنجية خاصة .

أما دياتهم فهندوسية أو وثنية ، وعاداتهم فطرية بدائية ،
وطعامهم الأرز ، وحليفتهم البخل ، فهم على الإجمال من حيث
الأخلاق والغرائز والطعام أقرب إلى الهندوس منهم إلى أى
جنس آخر ، ولذلك يعتبرهم الهندوس جزءاً منهم .

هذا بيان قصير لكل جنس من الأجناس الثلاثة الأساسية التى
تعيش فى الهند ، وبه يدلل المسلمون على العوامل الحيوية المختلفة
التي تقوم دون وحدة البلاد ، وتستوجب عدم بقائها على ما هى
عليه . ويقولون إن تلك العوامل كانت أبداً مبعث البغضاء
والقتال فى الهند ، حتى قبل دخول المسلمين ، فلا ينتظر
— والحال هكذا — أن يسود التناهم ، ويرفرف الوئام على
هذه الشعوب ، طالما هى مجبرة على الحياة معا ، ضمن حدود

واحدة ، وتحت قوانين واحدة ، قد تلائم طبيعة البعض ، ولا تتناسب مع البعض الآخر .

قال البروفسور « لايد » عندما تكلم عن التجار الأوربيين الذين كانوا يتاجرون مع الهند منذ ألفى سنة قبل دخول الإنجليز : « من سوء الحظ أن قرنا من التجارب ترك هؤلاء التجار يؤمنون بفكرة واضحة صادقة تتلخص في أن الهند ما هي في الواقع إلا تعبير جغرافي ، فأهاها من أجناس مختلفة ، ويتكلمون لغات مختلفة ، ولا يكفون أبداً عن قتال بعضهم بعضاً » .

ويقول في مكان آخر من الكتاب :

« ليس في الهند أى نوع من الوحدة اللهم إلا وحدة الاستعمار الإنجليزي » .

ويذكر في مكان ثالث :

« وبفضل هذه الأجناس الثلاثة البشرية ، والشعب الثلاثة اللغوية ، والعقائد الثلاث المتباينة ، ستبقى الهند إلى الأبد معضلة بلاد مختلفة الشعوب ، لا تجمع بينها أية رابطة ، حتى الطعام والعادات » .

وبهذا تنتهي حجج المسلمين وأدلتهم ، وقد تكون تلك

الأدلة مقنعة، وقد لا تكون كذلك، فعلينا إذا أن ننتظر ما تتمخض عنه أحداث المستقبل القريب ، لنرى أفى استطاعة الهنود أن يتناسوا الفوارق بعد استقلالهم ، ويعيشوا أخوة أحياء ، أم تقوم بينهم حرب أهلية تسجل الغلبة لفريق على فريق .

طالعوا مجلة

الكتاب

التي تقدّم إلى قراء العربيّة
في أوّل كل شهرٍ أبحاثاً قويّة
ودراسات رصينة وأنباء طريفة
في مختلف ألوان الآداب والعلوم والفنون

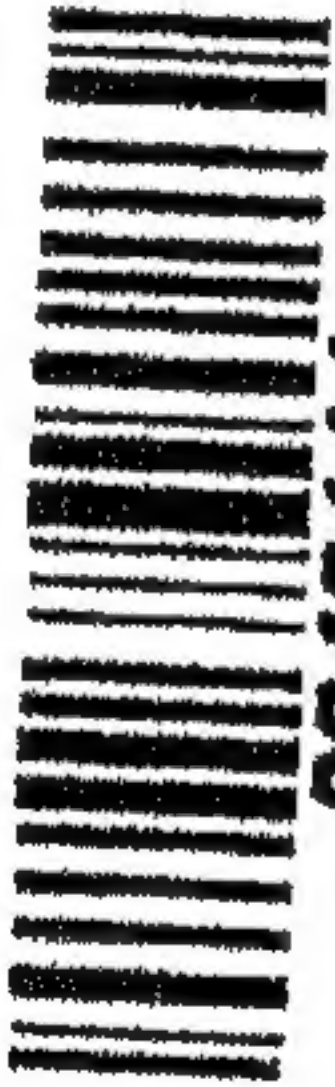
تصدر عن

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر
رئيس تحريرها الأستاذ عادل الغنص
يشترك في تحريرها كبار كتاب الشرق

شحن النسخة

بمصر والسودان ١٠ قروش بفلسطين وشرق الأردن ١٢٠ ملة
لبنان وسوريا ١٢٠ غرام بالعسرات ١٢٠ فلساً

Bibliotheca Alexandrina



0248111

